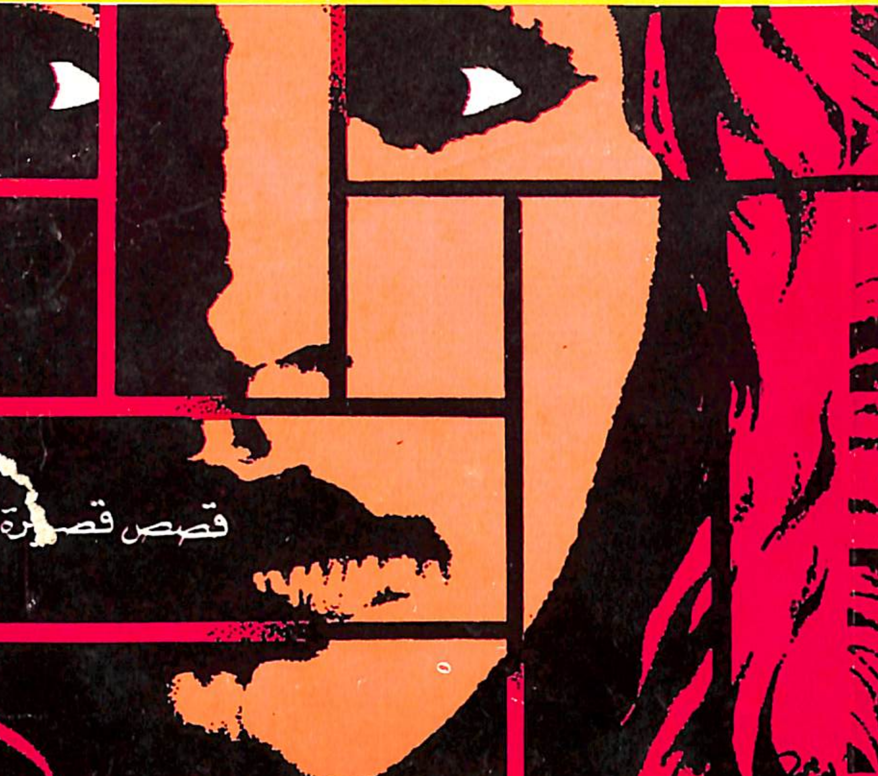
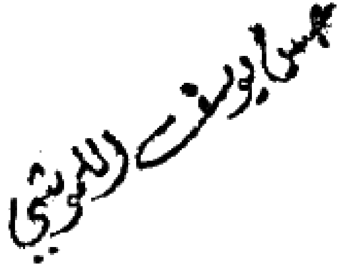
محمد على الشوَيهدى

أحزان اليوم الواحد



كتاب الشعب

١٠



أحـزان اليوم الواحـد

كتاب الشعب

أحزان اليوم الواحد

قصص قصيرة

محمد علي الشويهدي

منشورات
الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

العدد ١٠ — اكتوبر ١٩٧٨ م

الطبعة الثانية
اكتوبر ١٩٧٨م

تصميم الغلاف للفنان
محمد نجيب

الاهداء

إليها ..
حبيبتي بنغازي
بقدر ما أحبتها
وبقدر ما عذبتني
فأحبتها .. أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

"محمد"

عيسى يوسف الحويشي

بعضٌ من تصوّرنا

عصابتك الموشي

طرق الباب ثلاث طرقات متوالية ، فانتفضت مفزعة لتفتح باب حجرتها الموصد وتسترق السمع لتتبين القادم ، وان انبأتها الطرقات الثلاث عمن يكون ، انه ابن عمها سالم دون شك ، اتى لزيارتها وليبارك صيامهم ، وليقضي بعض الوقت معهم ، ولتتلصص عيناه في حذر فتلتقي بعينيها لقاءً قصيراً جداً لكنه مفعم بحب ما بعده حب .

انه سالم ، لانه اتفق معها على ان يطرق الباب ثلاث مرات متوالية حين يقدم لزيارتهم ، فتستعد هي بالتالي لمقابلته وتحيته بطريقة عفوية أجادت اداءها بفعل زيارات سالم العديدة لمنزلهم بأعذار معقولة أحيانا ومضحكة في أغلب الاحيان .

وارتدت لتوصد الباب وتدير المفتاح في حذر خفية ان

يفطن احد لتلصصها ، واستندت على البـاب تدير في رأسهـا الصغير آلاف الافكار والخواطر ، وداهمتها فكرة ان لا يكون سالم هو القادم ، فالتفتت مذعـورة لتفتـح البـاب من جديد وتتلصص غير انها ما لبثت ان ازاحت هذه الفكرة من رأسها ، لان القـادم لا بد ان يكون « سالـم » فلا احـد يعـرف بأمـر الطرقات الثلاث سواه :

انه سالم ، حلمها الجميل الـذي عاشـت تحلـم به منـذ شهور تكاد تقارب السنة ، فتخاله زوجها الطيب الودود ، تعيش معه تحت سقف واحد ، يرقدها في عينيه الزرقاوين ويغطيها بجفونه المسبلة الطويلة ، فتنام العمر كله دون ان تحرك ساكنا غير لسانها ، تديره في حلقهـا فلا يلفظ سوى اسمه . . سالم . .

وتحركت خطـوة الى الامـام ، وواجهـت مرآة « دولاب » ملابسها ، فابتسمت لشبابها الصارخ الفاتن وامتدت يدها تحيد خصلات شعرها الاسود الطويل الذي غطـى وجههـا عندمـا انتفضت لتتبين القادم ، فاتضحت تقاطيع دقيقة معبرة لوجـه صغير جميل ، وعاودتها ابتسامتها التي لم تكد تختفي .

انه لا شك مرتبك في حديث متكلف سخيف مع امها ، عن الصيام ومتاعبه ، وعن الجو وبرودته ، وعن خالته التـي تناصب امه العداء دون مبرر ، بينما تتلصص عيناه عبر السقيفة في انتظارها ، انها تسحره ، تجعله يكتب لها الكثير من الرسائل في وله ، ويرتجف ويتصبب عرقا كلما لاقته ، بل انـه كاد ان يغمى عليه ذات مرة عندما ابتسمـت له في غفلـة من الجميع بالسقيفة ، وهمست له في بحة خائفة مترددة :

ـ احبك . . احبك يا سالم .

وتذكرت رأي اهلها وكل اقاربها في سالم فكادت تقهقـه لأنهم يرونه شابا مؤدبا مستقيما ، يكاد لفرط ادبه ان يستحي من ظله ، بل لعله قد فعل ذلك ذات مرة ، ولكن سالـم مؤدب ومستقيم بالفعل ، فهو بشهادة امه وجيرانه ، لا يعرف السهر خارج البيت ابدا ، ولم يحدث ان جاوز التاسعة مساء خارج البيت ، وسالم ليس له رفاق سوء على الاطلاق كما هو الحال مع من في سنِّه ، ولم يقل عنه احد انه احتسى في حياته ولـو جرعة صغيرة من الخمر .

انه نعمَ الزوج ، ونعمَ الرفيق لحياة طويلة مليئة بالحب

والبهجة وكل ما هو جميل ، وشعرت بدفقة عارمة من عاطفة بكر بريئة تعم كل كيانها ، وهمست بصوت يكاد يكون مسموعا :
ـ أحبك . . أحبك يا سالم .

وأحست بأنها تظلم سالم وتعذبه بتأنيها المقصود كلما جاء لزيارتهم ، فلا تصله وتلتقي به وتحييه ، الا وسالم في آخر رمق يكاد يفقد الامل في لقائها الذي تجشم عادة في سبيله الكثير ، لكن دلالها هذا يزيد شعلة الحب المتوهجة في داخل سالم اتقادا ، ويجعله يتلهف اكثر على رؤيتها ورد تحيتها بأفضل منها بكثير ، غير انه يلومها في خطاباته على تأنيها هذا كثيرا ، ويرجوها ان تلاقيه بمجرد ان تتخطى قدماه عتبة بيتهم حتى لو التجأت الى حيلة نسائية صغيرة لا تكتشف . الا انه دون شك يجد لها العذر في تأخرها ، هذا ، فلو علمت الام بسرها لأبلغت اخاها الذي لا شك قاتلها في الحال . . وعلى سالم ان يصبر قليلاً كما صبر كثيراً .

ونزعت عن جسدها فستان النوم ، وبدأت تتخير فستاناً محتشماً انيقاً لتلقى سالم به ، وتذكرت ان سالم يحب اللون الأزرق الفاتح ، فامتدت يدها الى فستان بذلك اللون ،

وارتدته ، وخافت ان تنبهها امها بعد ذهاب سالم الى ان الفستان الذي ترتديه مخصص للخروج لا للبس في المنزل ، وخشيت ان يكون في هذه الملحوظة مدعاة شك فمراقبة تنتهي باكتشاف سرها الذي لا يعلمه سوى الله .

وارتعشت أصابعها بينما كانت تفك الفستان لتخلعه وتعيده الى مكانه في « الدولاب » ، كان عليها ان تضحي وتحتمل ، وعلى سالم ان يفعل ذات الشيء في سبيل ان يظل حبهما سرّاً لا تظلله سحابة شك ، فالمواجهة المدعمة بفهم العجائز للعاطفة البريئة التي تربطها بسالم وما يتبع كل ذلك من تطورات قد تؤدي الى قتلها ان لم تضطرها الى الانتحار هرباً من سوء المعاملة ، التي سيتفق الجميع على مضايقتها ومعاقبتها بها . . انها امور يجب ان توضع في الحسبان .

سيتزوجها سالم ذات يوم ، وسترتدي من أجله أزهى ما يحبه من الالوان ، وستحبه صراحة وامام الجميع دون ان ينبس احد بكلمة في حقها ، ستفعل كل هذا ذات يوم ، عندما يصير سالم زوجها الودود الطيب .

وتحركت الى كرسي في احد اركان الغرفة لتلتقط

اصابعها ـ على كرةٍ ـ فستانها الـذي كانـت ترتـديه طيلـة يومهـا المنتهي ، وارتدته في لا مبالاة ، وكأنها تلوم نفسها وظروفها التي تأبى ان تمكنها من استقبال سالم بفستان ترتاح له عيناه .

عادت الى سابق وقفتها تشـد الفستـان من ناحية ليرتفـع قليلا من ناحية اخرى بينما امتدت يدها تعمل بمشط خشبي كبير في شعرها الاسود الطـويل ، وانتهـت من زينتهـا البسيطـة ، وداهمها شوق عنيف الى سالم ، وراودتها رغبة في ان تقابلـه مرتدية فستانها لا غير ، الا ان نشوة الرغبة لم تدم ، اذ تلاشت بفعل خاطرة خاطفة تذكرتها بما ستقابل به من نظرات غضبى تترجم الى توبيخ بمجرد ان ينصرف سالم ، ولفّت الرِّداء حول جسدها على عجل ، وخطت الى باب حجرتها الموصد تفتحه وتسترق السمع لعلها تسمع صوته ، ولكنها لم تستطـع ان تطيل امد وقفتها ، ورأت ان تسير الى حيث هو ، فلقد تأنت اكثر مما يجب ، ولا شك ان سالم يكاد يفقد الامل في لقائها ، بل لعلـه قد فعـل ، وتـذكرت ان امهـا تناديهـا لتحيتـه كلما تأخرت ، وتنبهت الى ان امها لم تفعل بعد ، فرأت ان تنتظر بعض الوقت حتى تتيقظ امها فتناديهـا ، وحينهـا ستندفـع الى

لقائه بكل حبها وشوقها وقد أعفت الشكوك والتأويلات من تدخلها الكريه .

وطال بها الانتظار ، ومرت دقائق ثقيلة بطيئة سخيفة ، تلد كل ثانية شكا يمزقها في غير ما هوادة ولا رحمة ، اذ ربما تكون امها نادتها لتحية سالم ولكنها لم تسمع نداءها ، فباب حجرتها كان مغلقا دون العالم كله الا خيال سالم وكلماته الحلوة وابتسامته العذبة .

وأحست انها تعطي الكثير في سبيل رؤيته ولا تبخل في عطائها ابدا ، وانه ليس وحده الذي يعاني من ذلك الخليط الفظيع من احاسيس تجربة عاطفية كاملة ، ورأت ان تتحرك في اتجاه السقيفة ، وفي حركة عفوية تدخل « المربوعة » وكأنها لا تعلم بوجود احد كما تفعل احيانا ، وشرعت في تنفيذ خطتها ، فما ان دخلت السقيفة حتى فوجئت بباب (المربوعة) موصدا ، ودق قلبها دقات سريعة تكاد تسمع لو أُرهف السمع ، او هكذا خيل لها ، وصعدت الدماء الى وجهها حارة فتوردت وجنتاها ، واحست بكل شعرة في رأسها وكأنها تنبت من جديد ، وتراجعت يائسة ، لانه لا يمكنها ان تطرق الباب

وتدخل والا لكانت فعلتها وخيمة العواقب ، واصطدمت أثناء تراجعها بجسد عجوز مترهل ، والتفتت مذعورة ، وفوجئت بامها تقف من خلفها ، وبدا لها للوهلة ان امها اكتشفت سرها ، وتلاحق في مخيلتها ما يعقب ذلك من متاعب ، فتداركت على عجل تسائل امها وكأنها تستغرب ان يكون في « المربوعة » احد ، بينما كانت تشير بسبابة مرتعشة الى حيث تكاد تسمع انفاسه :

ـ من هناك ؟ !

ـ لا احد .

ـ لقد سمعت الباب يطرق منذ دقائق . . خفت ان يكون . .

وقاطعتها امها . .

ـ حقا . . كان الطارق ابن جارتنا صالحة . . جاء ليستعير قصعتنا . .

رحلة الاحلام

فتحت عينيها في تثاقل لذيذ ثم فركتهما بسبابتها لتلتقي من جديد بالوجوه الصغيرة المصفوفة على السرير الكبير في طرف الغرفة ، واحست بنشوة تغمرها وبسعادة خفية تدغدغ اعماقها ، وحولت الغطاء عن جسدها الفاره ونزلت عن السرير ووقفت في وسط الغرفة وتمطت وكأنها تدفع بآخر آثار النوم عنها ، وخطت الى الامام خطوتين وبدت على صفحة المرآة صورة رائعة لتحفة ابدع الرب في صنعها ، عينان سوداوان حالمتان ، شعر اسود طويل متهدل على الكتفين والنهدين في فوضى جميلة ، شفتان قرمزيتان تحتضنان في وداعة ثغراً صغيراً جميلاً ، وجنتان متوردتان تكادان ان تنفجرا ، قوام متناسق اخّاذ . . و . . واحست بالرضى عن نفسها والتفتت الى الخلف وقد ازدان محياها بابتسامة تفيض ثقة واعتزازاً ، والتقت عيناها بالوجوه البريئة المصفوفة على السرير ، وانقبض قلبها فجأة

عندما ومضت في رأسها انها ستفارق اخوتها الصغار الذين لا يلوذون بسواها في محنهم الصغيرة ولا يلجأون الى غيرها في قضاء حوائجهم ، وسرى في كيانها شوق عارم اليهم واعترتها رغبة ملحة في ان تقبل شفاههم الصغيرة ، وتحركت في اتجاه سريرهم وانحنت على اصغرهم تقبله فلامست خصلات شعرها وجهه وفتح عينيه وابتسم ثم عاد الى رحلة الاحلام الطفولية الرائعة ، ورأت ان تدع الصغار نياماً وان لا تأتي بأية حركة ربما توقظ الرقود ، فالساعة لم تتجاوز السادسة صباحاً بعد ، بدء اليوم الجديد لم يحن موعده في بيتهم . وتحركت تجاه سريرها لتضطجع قليلا ولكنها كرهت ان تنام بعد ان استيقظت فجلست على الحصير مرتفقة حافة السرير .

ايام العرس لن تكون ثلاثة ايام قصيرة ، لياليه لن تكون ثلاث ليال فقط ، حياتنا كلها ستكون عرسا لا ينتهي ، ولم لا تكون ؟ ! . . لم لا تكون وقد تحققت الاحلام التي كنا ننسجها على قصاصات الورق في ليالي السهاد المؤرقة ؟ ! . . فمن كان يظن انه يمكن ان يتم بيننا لقاء ؟ من كان يعتقد انني سأكون امرأته وسيكون رجلي ؟ . . رجلي ورفيق حياتي وزاد رحلتي الطويلة . وخالته واقفاً على بعد

خطوة منها ببسمته الصغيرة وملامحه الرجولية الجادة ونظراته المتشوقة الحانية ، وكادت ان تسمع انفاسه تتردد منتظمة عميقة . .

ـ ألم اقل لك ان اباك رجل طيب ، وانه لن يرفض بل سيرحب بي ابلغ ترحيب وسيعتبرني ابنا واخا منحته السماء بعد طول جدب ؟ . . لقد قلت ذلك لانه لم يدع ساعة تفوت دون ان يمجدني حتى يخجلني ، ولم يحدث ان مررت به الا وسبقني الى القاء التحية وامطرني بأسئلته عن حالي وأحوالي . .

واحبت اباها كما لم تحبه من قبل ، رأته يحقق مستحيلا بموافقته على زواجها من سعيد وتمنت لو يزيل ذلك الحجاب اللعين ويفتح لها صدره لتحدثه عن سعيد ، فيحبه اكثر ويعتبره ابنا حقيقياً يحق له ان يفاخر به الناس .

وبدت نصف نائمة وقد اراحت خدها على راحة يدها المرتفقة على حافة السرير واحست بانها وسط جمع هائل من النساء والاطفال، ضحكات رنانة سعيدة وكلمات كثيرة تأتي من كل الانحاء فتختلط لتضيع دقات الطبلة ونغم الزمارة والتصفيق والصوت الملعلع :

ـ عرس فطومة يا جيران . .

وانتفضت مفزوعة ورفعت عينيها فتبينت امها واقفة تحدق فيها متسائلة :

ـ فاطمة . . ماذا هناك ؟

ووقفت بعد ان عاودتها الطمأنينة التي قذف بها الفزع بعيدا ، وابتسمت في حياء :

ـ ابدا . . لا شيء . . صحوت مبكرة وفضلت ان لا انام فجلست الى جانب السرير . . ولكن يبدو انني نمت .

وتبعت امها الى المطبخ ، ولكنها توقفت في وسط الحوش فجأة عندما جاءها صوت ابيها من الغرفة المجاورة :

ـ قميص نظيف . . قميص . .

ورجعت الى غرفتها تتصبب خجلا ، واحست بان انتزاعها من بين الوجوه التي احبتها قد بدأ بالفعل ، ومسحت بطرف فستانها دمعة يتيمة تدحرجت على خدها ، واسندت

ظهرها الى باب غرفتها الموصد وتنفست بعمق وكأنها جنبت نفسها عواقب حادثة كادت تقع ، فما كان يجب ان تخرج الى وسط الحوش وابوها ما يزال موجودا في البيت ، الامور لم تعد هي الامور ، كل شيء تغير ، والحياء ابسط الحقوق التي يجب ان يمي بها الابناء للآباء في مناسبات كهذه ، فلا يجدر بالبنت ان تقابل اباها حين يأزف موعد عرسها .

وتنبهت الى ان موعد عرسها لم يحن بعد ، ولكن الرجال سيحضرون عند المغرب للاتفاق مع ابيها على الشروط .

ووخزتها كلمة « الشروط » لما تتضمنه من معان تجرد عاطفتها من شفافيتها وروحانيتها وارتفاعها عن الماديات ، لكنها ما لبثت ان عزت نفسها بانها ليست سوى شكليات تفرضها تقاليد متوارثة ثم انها لا تتعدى كونها اتفاق ممثلي الطرفين على مراسم الزواج ومتطلباته ، وعرفت انها تخادع نفسها فأغمضت عينيها وكأنها تحاول ان تهرب من افكارها الملحة القاسية . .

ليحدث ما يحدث . . فسعيد يحبها . . وابوها يفضله على جميع شباب الحي بل انه اعتبر رغبته في الزواج منها تحية تقدير

خصه بها سعيد دون الجميع . .

ودفع الباب من ورائها فجأة فاندفعت الى وسط الغرفة في خطوات سريعة حتى كادت تقع ، والتفتت مذعورة فالتقت عيناها بوجه امها الثائر المتحفز :

- ماذا اصابك يا فاطمة ؟ . . لم لا تتحركين فتناولين اباك قميصه ؟ ! الم تسميعه ؟ !

وأطرقت بعينيها في الارض ، وكست وجهها حمرة مفاجئة وأحست بدمائها حارة تلهب بشرتها وخرجت الكلمات من اعماقها متعثرة خجلى :

- ارجوك يا امي . . انت تعرفين ان اليوم . . اليوم . .

وضاعت الكلمات ورفعت رأسها الى امها ثم أسبلت جفونها في حياء ، وفهمت امها ما تعنيه فانفرجت اساريرها عن ابتسامة عريضة وهمست لها بكلمات مرحة :

- ولم كل هذا الخجل ؟ . . انه ابوك . . ولكن رتبي حجرتك واستعدي للحاق بي في المطبخ . . بمجرد ذهاب ابيك . .

واستدارت الام في خطوات مرحة متجهة الى وسط الحوش ، واسرعت فاطمة الى باب غرفتها توصده وتدير المفتاح في قفله منعا للمفاجآ ت ، وأعادت ترتيب فراشها ، فالفراش الكبير الذي يخص اخوتها الثلاثة الذين يشاركونها الغرفة ، واطمأنت الى ان كل شيء مرتب في موضعه ، ورأت ان تسرح شعرها فالتقطت المشط من فوق سطح « الدولاب » وشرعت تمشطه وخيالها الذي خدرته الاحلام يتابع مراسم ليلة الحناء .

ـ فاطمة .

وانتفضت والتفتت الى نافذتها المطلة على الشارع ، وتحركت في خطوات مرتعشة حتى بلغت النافذة وأزاحت الستارة قليلا وظهر سعيد من خلف الزجاج مرتبكا ، واغتصب ابتسامة فدفع بها اليها واخرج من جيب معطفه قصاصة امتدت بها يده اليها ، وادارت الاكرة ، ورن صوت ابيها في ارجاء المنزل :

- سأعود بعد ساعة .

وسمعت وقع أقدامه في طريقه الى الباب فأشاحت بيدها

لسعيد ان اذهب واسدلت الستارة بعد ان اقفلت النافذة ، واستندت الى الجدار مغمضة العينين وقد اسلمت امرها الى الله .

فتح الباب ثم اغلق وساد الصمت للحظة بدت طويلة مشحونة بالقلق والتوتر ، وجاءها صوت ابيها من الشارع مرحاً مرحباً :

ـ صباح الخير يا سعيد .

وصوت سعيد وقد غلبه الارتباك والتأثر :

ـ صباح الخير . . صباح الخير يا سيدي الحاج . .

وساد الصمت من جديد ، وانتظرت قليلا الا ان شيئا لم يحدث .

●●

ورحلت آخر الخيوط الذهبية الى بقعة اخرى في العالم لتصنع حياة جديدة في يوم جديد ، وانتهى بغروب الشمس انتظارها الذي عبر السويعات الفاصلة بين صباح يومها ومسائه

في الف يوم ، واختفت في غرفتها عن عيون الام والعمة والخالة والجارات ، وعلت في الشارع قهقهات واصوات تتبادل النكات والتشنيعات ، ووقع اقدام يتخلله وقع عكاكيز ، ودخل الرجال الى المربوعة تسبقهم ضحكاتهم وسط كلمات الترحيب ، ومضت فترة قصيرة انخفضت خلالها الاصوات وخف الهرج والمرج والضجيج ليعم بعدها صمت تتخلله بعض الكلمات التي لا تعني شيئا .

ـ لا . . لا . . يا حاج . .

ـ لا يا سيدي الموضوع بسيط . .

ـ مجيئنا له ثمنه . .

وأحست بظلم ثقيل لا يحتمل ، وتمنت ان تجد في نفسها من القوة ما يجعلها تفتح باب غرفتها المظلمة وتندفع الى حيث يتهامسون لتقذف برأيها في وجوههم ، وتعرف رأيهم ووجهات نظرهم وما استقروا عليه ، وعزت نفسها بأنها ستعرف كل شيء بعد دقائق ، وبان اباها لا شك يعتز بمصاهرة سعيد وانه لن يقصر في حقه ابدا ، واذا حاد عما يجب فلا شك ان الرجال سيقنعونه بالصواب . .

وارتعشت لفكرة انها قصرت في حق سعيد ، وتمنت لو انها صارحت امها بحبها لسعيد ورجتها ان تدفع اباها الى القبول ، وتألمت لعجزها عن ان تفعل شيئا ، لكن امها تعرف على كل حال انها لا ترفض سعيد ، وربما حدثت اباها ، ربما . .

ورأت ان تغلق رأسها دون هذه الافكار جميعها ، فما سيحدث على وشك الحدوث ، وليس عليها الا ان تنتظر الدقائق القليلة الباقية لتعرف ، وبدأت تفكر بطريقة تتخلص بها من الافكار المزعجة التي تأبى الا ان تفرض نفسها ، ونهضت ، وتمشت في وسط الغرفة ، لكن حركتها المفتعلة لم تنتزعها من افكارها وهواجسها .

وظهر في افق خيالها سعيد بابتسامته الصغيرة الودودة ، وجديته ، وكلماته الرجولية الحانية ، وبدا كطوق نجاة في لحظة يأس فتشبثت بصورته في خيالها تداعبها بكل ما يعتمل في داخلها من حب وحنان .

ورفعت حاشية الفراش والتقطت اصابعها آخر قصاصة تسلمتها منه ، وداست زراً فعم الغرفة نور اصفر ، وفردت الورقة الصغيرة وسبحت عبر سطورها .

«لا بد ان تتفاءلي يا حبيبتي ، لا بد ان تنظري الى الحياة بعين باسمة طموحة ، فالايام لا يمكن ان تخفي لنا في طياتها مكروها لاننا اعطيناها من حبنا ما لم نعطه لغيرها ولاننا نود ان نعيشها حبا كبيرا لا يخبو واحلاما لذيذة لا تنتهي ، فقط ، تمسكي بالامل واعتبري اليأس كلمة لا وجود لها في قاموس علاقتنا الطاهرة».

وتعالت الأصوات من جديد ، واختلط وقع الاقدام ، بوقع العكاكيز ، وخرج الرجال الى الشارع مشيعين بكلمات المجاملة وتحيات المساء . وابتعدت الاصوات ، وسمعت صوت الباب يغلق ووقع اقدام ابيها عائدا الى « المربوعة » وجاءتها همسات ووشوشات من وسط الحوش ، وعرفت ان النساء بدأن يتنفسن حريتهن بعد ذهاب الرجال ، وتمنت ان تعرف ما استقر عليه الرأي ، وسيطرت عليها فكرة ان تعرف قبل غيرها ، فتحركت في اتجاه الباب تفتحه ، ولكن سرعان ما كساها الخجل برداء من العرق ، وانتبهت الى انها ما تزال ممسكة بالقصاصة في يدها فعادت تخبئها تحت الفراش ، وتمنت ان تتطوع عمتها او خالتها بابلاغها ، وعادت الى الباب تلصق عليه اذنها الا ان الوشوشات والهمسات لم تعطها ما تريد ،

وكادت ان تفقد صبرها فتفتح الباب وتندفع الى وسط الحوش ، ولكنها رأت ان تتأنى لثوان ثم تخرج مدعية قضاء حاجة كأن تشرب مثلا ، وجف ريقها بالفعل ، واحست بالعطش يداهمها ، ووجدت في عطشها مبررا معقولا لا يبيح لها ان تخرج دون مأخذ ، ولعلع صوت امها محتجا :

ـ عيب يا حاج . . والله ما عندك حق . . تختلف معهم من اجل خمسين دينار . . خمسون دينار يا حاج . .

عيسى يوسف الحمويشي

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الغصن والشجرة

تملكني احساس بأنني أذوب ، أتحلل ، أنتهى ، أتلاشى في دنيا واسعة عريضة لا ابدو في قعرها العميق الا كذرة متناهية الصغر ولا ابدو على سطحها موجوداً ولا في وسطها منظوراً ، واغمضت عيني ، وتحسست اصابعي جفوني ، وارتحت للصمت الذي يغرقني في صخب من الداخل ، ضوضاء ، اصوات تختلط فتغتال الكلمات التافهة التي تمضغها الالسنة نصف الواعية والاصابع المتخشبة الطويلة تدق الطبلة ، والوجوه كالحة ، والعطور رخيصة تدفع الى التقيؤ ، والكحول يمتزج بسحابات الدخان تقذف بها النافذة كلما تحركت الريح المستغرقة في نوم عميق .

راحت تتحسس وجهي ، تزحف الى عنقي ، ترتفع الى رأسي وتضغط على سطحه بخفة ، الكلمات تصلني مجهدة بعد رحلة سبعة وعشرين عاما ، يتفتح لها رأسي ، ينسحب

الصخب ، تتراجع الضوضاء ، تبتعد الكلمات التافهة ، اتنفس عطرا رائعا ، تهتز الوجوه الكالحة ، تسكت الطبلة ، يبدو وجهه السمح الوقور ، ابتسامته الحانية ، نظراته التي تعلن في براءة عن اعتزازها بكوني ابنه :

- يا سيدي طلع رجل . . لم يحدث ان دفعته الى المذاكرة بل انني كثيرا ما صرفته عنها خوفا على عينيه من الاعياء . . لا . . ابدا . . كل سنة ينجح . . الاول . . الثاني . . الثالث . . دائما من الاوائل . . والله لا ادري . . ولكني اريده ان يكون مدرسا يعلم الصغار وانتم تعرفون ان للمدرس شأنا ومكانة بين الناس . . اذهب واسترح وسأعطيك ثمن تذكرة السينما في العشية . . فرحتي وزنها الدنيا ، بسماتي تجود بها شفتاي ، عيناي ، وجهي ، وكلماتي رقيقة مهذبة تغذي غرور القعود على الصناديق الخشبية الفارغة امام الدكاكين ، قلبي يتسع للجميع ، يفيض حبا طفوليا بريئا ، أيامي تبدو مبهجة جميلة ، قدماي لا يكلان من المشي ، طاقتي المشحونة بالطموح تتلهف ، تشتاق الى المشوار حتى النهاية .

الوجه السمح الوقور ، الابتسامة الحانية ، العينان اللتان

تفيضان حبا واعتزازاً، الصورة بكاملها تغيب ، تنسحب الى قاع داخلي ، يلاحقها خيالي ، يستجديها العودة ، ولكنها تغيب ، ويقبع اليأس في صميم نفسي ، ويثقل عليها حتى اكاد احس بمركز الثقل في ذاتي ، ويعتريني احساسٌ مدمر بوحدة تمزق آلامها كل خلية حية في جسدي ، وتقبض يد الخوف على روحي بعنف ، واحسني اتوقف عن الاتصال بالموجودات ، بكل ما يحيطني في واقعي او خيالي ، وتسري النهاية في جسدي المنهك . . وألمس حاجتي الى النجدة . . الى العودة .

يبدو انه نام . . وانني اكره ان ينام الرجال في حضرتي . . وما دام صغيراً قادراً على البقاء في مثل هذه القعدات حتى نهايتها فما كان يجب ان يحضر او ان يشترك وانني . .

واحسست بالقهر ، بالعجز ، بالوهن ، بالضياع ، بكل هذه الامور التي تحقر الانسان وتجعله يبدو صغيرا تافها ، لا يزن خردلة ، وطغت السوائل المحرقة حتى حنجرتي ، وكابدت طعمها القارص ، وصنعت ملامح غاضبة ، وفتحت عيني على اتساعهما وصحت في غضب :

ـ اعطني قدحي . .

ـ احذر . . امسك الكوب جيدا . . احذر ان تدلقه . . اذا كان الكوب ساخنا خذ هذه الورقة ولفه . . وقل لسيدك سعد ان الدور قد فاته وان هذا الكوب يخصه وحده .

شارعنا الهادىء الجميل ، بيوته المتوازية المتشابهة ، دكاكينه بأبوابها الخضر وكسادها المستديم ، وسيدي سعد يفرح لاحضاري كوب الشاي الساخن وينهض فيأخذه مني ثم يدعوني لمشاركته في رغيف طازج .

ويدور لساني في حلقي متقصيا اثر الرغيف الطازج وينكمش عندما يتذوق طعم الكحول القارص العالق بحلقي ، وتهتز ركبتي في قوة ، وأحيد اليد التي تهزها عني ، ويصفعني صوت ناعم داعر :

ـ قم . . قم . . لتأخذ دورك او تذهب لتنام . .

قم للمعلم وفه التبجيلا ، سأقوم بدوري على اكمل وجه ، سأصنع شخصية جديدة قريبة من شخصية الاستاذ عبد المجيد ، سأكون جادا مرحا ، لينا صعبا ، وسيحبني كثيرا ، وسأعود الى البيت في جماعاتهم الصغيرة ، وتحيطني وجوههم وبسماتهم ، وستلاحقني نظرات ابي التي تكاد تعلن للدنيا انه

صنع معلما يربي الاجيال ويصنع المتعلمين والكتبة .

افتح عيني على اتساعهما ، وتغالبني جفوني فتحول بيني وبين الرؤية ، وتتصل اذناي بالواقع ، وتلتقط الاصوات الصادرة عن الاشياء من حولي ، وتزكم انفي روائح العطور الرخيصة والكحول ، وتبدو الوجوه الكالحة من خلف الخطوط الضوئية التي تصنعها عيناي غير واضحة المعالم وأتبين وجه رمضان في صعوبة وتأتيني كلماته الغبية الواهية معلنة عن بطولته :

ـ كنت في الامس ورفيق لي على شاطىء قاريونس ، تصوروا اننا شربنا زجاجة ويسكي كبيرة وعدنا الى بيوتنا الا ان ابن الـ . . . أصر على ان نكمل السهرة برفقة زجاجة اخرى . . وكان . .

ـ ولكنك لا تستطيع ان تصنع نفس البطولة كل ليلة لانك لست سوى سائق محدود الدخل في شركة . .

واستفزته كلماتي الجارحة ، وتخللتني نظراته الغاضبة . توقعت شرا ، وعزّ علي ان أتراجع وسيطرت على عقلي رغبة في ان افرغ ضيقي وتعاستي في شحنة غضب ألهب بها كبرياءه . .

ـ لا تغضب . . فانت بغل ضخم الجثة وبطنك يتسع لالف برميل من الوقود المسروق من مخازن الشركة .

يا ايام طفولتي لم لا تعودين ؟؟

وكيف يمكن للمرء ان يفصل بكلمة . . برأي . . بقرار . . بين ايام عاشها وايام يعيشها . . هو انتزاع مؤلم مبك يدعو الى نطح اقرب جدار . . الى عض النواجذ . . الى الحسرة والندم . . الى الفرار بعيداً عن كل شيء .

بيتنا صغير متواضع ، تآمرت الشمس والرياح على طلائه فأفقدته لونه ، حجراته ضيقة ترى في النوافذ بدعة من عند الشيطان ، ولكنه كان مثلجا في الصيف دافئا في الشتاء ، ولم يكن يغمض لي جفن الا بين جدرانه ، وكنت احبه كما احب الوجوه الطيبة التي تزدحم في غرفه الضيقة .

واحاول ان اصنع صورته في خيالي بعد ان غذى عقلي فكري بالمواصفات، ولكن خيالي يغلق هذا كله ، ويلفني احساس بالضآلة ، بالتفاهة ، ويتحرك في داخلي اعتزازي بنفسي ويتمرد غروري وتطفو على سطح السائل القارص فقاقيع تطرقع بأسئلة غاضبة :

- من انت ؟ . . هل تستطيع ان تحدد ؟ هل تستطيع ان تقول من انت ؟

- انا علي . .

- علي ولد مَنْ ؟

- ولد ابراهيم . .

- وأين تسكن ؟

- في شارع سيدي عمران رقم ١١

ويقهقه الحاضرون ، ويحتضنني ابي بنظراته وأحس بأنني أتيت بما لم يستطع غيري ان يأتي به ، وأبتسم ، ويقاطع صوت متفائل قهقهة الجماعة :

- لن يتوه بعد اليوم ، ولو حدث وتاه فسرعان ما سيعود . . اول فاعل خير سيحضره الى هنا في الحال . .

ويقول صوت آخر :

-انني اكره رفقته ولكنه يتشبث بي كلما لاقاني ، ورغم ان اخلاقه في اوقات صحوه رائعة الا انه يفقد اتزانه منذ الكأس

الثالث وكثيرا ما يتفوه بالعبارات الجارحة في حق الاخرين فيقذف بي الى احرج المواقف ليتوه حضرته من جديد .

وأحسست انني منهك لا اقوى على الحركة ، وحاولت ان ارتفق اي شيء دون ان افتح عيني وعرفت انني في دائرة مفرغة من الموجودات على بعد متر بالربيع . وداهمني احساس يقيني بالوحدة ، وكدت اصرخ فيهم ان التفوا من حولي ايها الاوغاد ، واشتقت الى امي كثيرا ، وتمنيت ان اعرف السبيل اليها ، وعالج المنطق افكاري المرتجلة ، وركنت الى اليأس ، وتراءى لي ذلك الغصن المقطوع عن الشجرة ، الصفرة في اوراقه وعروقه ، الشمس تمتص ماء الحياة من داخله كل يوم ، والغصن يغزل من خيوط القمر الفضية الزاهية حكايات الحب والحياة كل ليلة ، والايام تمضي في اعقابها الليالي ، والحياة انسان يعطي في سخاء وآخر يأخذ في نهم .

اعجبتني الافكار التي يزدحم بها رأسي فابتسمت في غرور مضحك وكدت أفتح عيني :

ـ ان اتفه فكرة يمكن ان تدور في راسي هذا ، لا يمكن ان تدور في راس اي كلب منكم الا بعد ألف عام .

وضج القعود بالضحك وعرفت انني رجل فكه أجيد النكتة في الوقت المناسب ، وكدت اقول لهم انني لا اصنع النكات ولكنني اقذف بالحقائق الجريئة على وجوههم القذرة ، وتراجعت رغم رفض نفسي للمجاملات في مثل هذا المقام .

ـ خذه ليستريح حتى يستطيع ان ينهض في الغد مبكرا فيذهب الى عمله . . خذه ليستريح .

وبالرغم مني نطقت حكمة حفظتها في صغري :

ـ لا راحة في الدنيا . . ولا سلامة من الخلق . . ولا نجاة من الموت . .

وودعتني الضحكات والكلمات المؤكدة على كوني ابن نكتة ، وتحيات المساء ، ولاح في افق خيالي وجه المدير المتجهم ابدا ونظراته التي كثيرا ما تضطرني الى التفكير في الاستغناء عن العمل ، وتصلبت قدماي ، وحاولت ان اخلص نفسي من قبضة الذي يقودني الى السيارة ولكنني لم افلح تماما ككل مرة احاول ان اقدم فيها على الاستقالة للخلاص من ذلك الملعون الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب ، وقذفت بآهة خارج جوفي والتفت الى رفيقي :

ـ أمي كانت تصوم رجب . .

كان للحياة طعم آخر ، مذاق يختلف ، كانت الحياة غير هذه التّي نعيشها ، وكانت امي تصوم كل شهر رجب وشعبان أيضا ، وكان جيراننا يسمونها صائمة الدهـر ، وكنـت احبهـا كثيرا ، وكانت تحنو علي ولا تنام قبل ان اعود .

ـ ستأخذني وأباك الى مكة في سيارتك ، انني احس يا بني وكأن تلك الاراضي تدعوني الى زيارتها ، شيء في داخلي يؤكد اننا سنزورها ثلاثتنـا وسأمسـك بيدي هذه شبـاك قبـر النبـي وسأقبل الحجر الاسود. .. ليت هذا يحـدث الان . . ليتـه يا ابني . .

ـ انت مخير بين ان تتحرك لتعود الى البيت وبين ان أتركك هنا ملقى في الشارع .

وتحركت .

وعاودنـي اليأس من جديد، لا شيء يستأهــل شيئــا ، والمشوار حتى نهايته لا يتعدى كونه خدعة يعلمها الكبار للصغار حتى يتورطوا في نفس الخطأ ، وتملكني إحساس بأنني اذوب ،

اتحلل ، انتهي ، اتلاشى في دنيا واسعة عريضة لا أبدو في قعرها العميق الا كذرة متناهية الصغر ولا ابدو على سطحها موجودا ولا في وسطها منظورا .

وافرغتني الشاحنة الصغيرة عند الباب ، وبقبضة لا أكاد اشدها طرقت الباب ، وجاءتني طرقعات القبقاب متلاحقة ، وفتح الباب ، وطالعتني عيناه الصغيرتان المشبعتان بالنعاس ، ومنحني ابتسامة صغيرة شبه معاتبة ، وكاد النوم ان يحني رأسه عندما انتزعته وضممته الى صدري اقبله ، وعاد صغيري يمنحني ابتسامة من جديد بينما ارتفعت يده لتدغدغ اصابعها الدقيقة اذني ، وغاصت كل افكاري في القاع ، وتفتحت نفسي على الدنيا ، وسخرت من فلسفاتي التافهة ، وشحنتني ابتسامته بطاقة ، انني اكبر واكبر واكبر ، وان المشوار يستأهل الجهد ما دام لي في دنيتي قلب صغير بريء يخفق بحبي .

أحزان اليوم الواحد

حـذوات الخيل تدق الطـرق المعبـدة ، سائقـو (الـكاروات) يطرقـون السياط في الاجـواء ، ومحركات السيارات المنطلقة في جنون تحدث ضجيجا نصف مقبـول ، وتحيات الصباح يتبادلها الرجال الذاهبون الى اعمالهم باصوات عالية ، وباعـة (السفنـز) والفـول ينـادون على بضاعتهـم بأصوات تكاد تتوسل المشترين .

الساعة كانت السابعة صباحا وبنغازي تتنفس الصباح في تلذذ كسول ، والحياة تبـدو مبهجـة داعية للعمـل ، ووجـوه الرجال يكسوهـا التفـاؤل المفتعـل الـذي يراد به الاستبشـار بأحداث سعيدة في يوم جديد .

حليمة في فراشها تغط في نوم عميق ، واخوتها الصغـار يتحركون في مراقدهم وكأنهم يطردون آخر ما علق بجفونهم من

نوم ، وباب الغرفة الموصد يدفع بعنف ، والحاجة تندفع الى وسط الغرفة بثوبها الواسع الفضفاض الطويل ، الصغار ينهضون جملة ويقعدون في مضاجعهم يتمطون ، الام تصرخ بصوتها العجوز الحاد فينفذ الى اعماق حليمة التي تكاد تنتهي من حلمها السابع :

ـ حليمة . . حليمة . . انهضي ايتها الكسولة البائرة . . انهضي حتى لا تحرقك الشمس . . وتفتح حليمة عينيها على يوم جديد ، ويفتر ثغرها عن ابتسامة تتوسل بها امها ان كفاها ما سمعت ، وتموت الابتسامة على شفتيها الشابتين ، وتنزع الغطاء عن جسدها وتطرق بعينيها الى الارض متحاشية نظرات امها :

ـ حتى في كبري لا ارى منكم الا التعب . . حتى في كبري لا اجد من يريحني . . ليتني ما شقيت من اجلكم كل الذي احتمله . . انهضي . . تحركي . .

وتداخلت اصوات الصغار في ضجة بريئة :

ـ الافطار يا امي . .

واستدارت الام ومضت دون كلمة ، وجرّت حليمة جسدها المنهك في اعياء الى حيث تعلق رداءها ، ولفت جسدها الفاره به وامتطت « شبشبها » الى المطبخ وظلال واحد وعشرين عاما من الشقاء تحول بينها وبين اية بارقة امل في لحظة استرخاء .

ـ ايه . . اييه . . القهوة . . أتسمعونني ام لا ؟

كان اخوها محمود الذي يكبرها بعام واحد ، وكان يعنيها ، وكانت تحمل له من الحب قدرا كبيرا رغم انه لم يحدث ان اسمعها في حياته كلمة حانية واحدة ، وابتسمت لكلماته التي تطرق اذنيها كل صباح ، ولكنها عادت فاكتأبت ، وخرج الصوت من اعماقها كسيرا :

ـ حاضر . . حاضر يامحمود . . لحظة . . لحظة واحدة .

وحاولت ان تقول اي شيء آخر لتشغله بكلماتها عن رد تدرك مضمونه ، ولكنها لم تجد ما تقوله ، وتوقعت ان يقول اية كلمة غاضبة تعلن عن سخطه وتبرمه ، غير ان الصمت خيم من جديد ، وانتبهت الى القهوة التي تكاد تفيض فرفعت الاناء عن اللهب وصبت شيئا منه في فنجان كانت اعدته وأمسكت

بالفنجان من عروته واستدارت في طريقها الى محمود واصطدمت عيناها بعينيه ، واصطدمت يدها الممسكة بالفنجان بصدره وغاص قلبها واندلقت القهوة على قميص محمود وسرواله ، وجف ريقها وتملكها خوف من المجهول .

••

الصغار في الشارع ، واصواتهم المتنازعة تحمل الالفاظ البذيئة الى دواخل البيوت ، وبائع الادوات المنزلية العجوز يحمل على ظهره كيسا كبيرا معبأ بالاكواب والحلل والملاعق والسكاكين وصوته العجوز ينادي على بضاعته الرخيصة في وهن ، وزغرودة تنطلق من احد البيوت معلنة عن نجاح الابنة في امتحان الاعدادية ، وحذوات الخيل تدق الطريق المعبدة في اوقات متباعدة ومحركات السيارات المتمهلة تحدث ضجيجا مقبولاً .

كانت الساعة العاشرة ، وحليمة تنشر بيديها الواهيتين ، الغسيل على الحبل الطويل الذي يشطر سماء وسط الحوش الى نصفين ، وثلاث جارات يقعدن على الحصير الى جانب الحاجة يحتسين الشاي الاخضر ويشرّحن ابنة ناظر المدرسة التي ترافق اباها الى دور الخيالة ويترحمن على ايام الحياء والادب التي ذهبت ولن تعود .

ـ خـذي هذه الصحـون الى المطبـخ . . وافطـري اذا شئت . . وحاولي ان تنتهي من الغسيل حالا حتى تشرعي في الاعداد للغداء .

وتحمل حليمة الصحون الى المطبـخ ، وتعمـل يداهـا في فتات الخبز وما تبقى من حبات الزيتون ، وتبلل ريقها بقليل من الماء البـارد ، وتـكشف انهـا تقـاوم الرغبـة في عدم الاكل بالمستحيل ، فتضـع فضـلات الزيتـون والهريسة في الثلاجة ، وتقذف بفتات الخبز الى القفة ، وتستدير عائدة الى الحمام حيث تنتظرها الملابس التي لم تغسل بعد ، ويفتح باب البيت ليصفق ، ويبدو الحاج بيده القفة ، وتسرع حليمة اليه وتأخذ منه القفة لتفرغ محتوياتها في الثلاجة ، ويدلف الحاج الى الحمام ، وتجسّ احدى الجارات النبض :

ـ يحسن بنا ان ننهض اذ ربما اراد الحاج ان يقضي حاجة او ان يركن الى الراحة . .

ـ ابدا . . ابدا . . انه يحضر مصروف الغداء في العاشرة كل يوم ثم يعود الى دكانه . وتنفست النسوة في ارتياح ، وبدت حليمة على عتبة المطبخ تنتظر خلو الحمام لتعود الى الغسيل ، ومنت

نفسها بأن تتحدث النسوة عن اي شيء حتى تسمع جديدا في يومها ولكنهن لذن بالصمت ، وصفق باب الحمام بعنف ، وخرج الحاج ثائرا ومزمجرا ، فأخفت الجارات وجوههن وفتحن آذانهن فى فضول :

- (المريلة) اتلفت تماما . . اتلفها (البوطاس) . . اتلفها الاهمال . . افقدها لونها . . الا تعرفن يا جاهلات ان (البوطاس) يفقد الملونات ألوانها . . آه . . آه . . لم أعد اطيق هذا الاهمال . . انني إنوء بحمل لا يستحق العناء .

وتألمت الحاجة ، استاءت لكلمات الحاج الغاضبة امام جاراتها ، احست بأنها جرحت في كبريائها ، وأفرغت جام غضبها في حليمة :

- لست ادري متى تتعلمين . . انك سبب امراضي وأحزاني . . انت لا تهتمين بشيء . . انت أسوأ من انجبت على الاطلاق . . اي زوج تعس سترمي به الاقدار اليك . . آه يا مصيبتي . . يا حظي .

وبقدر ما آلمت حليمة كلمات امها الجارحة الا أن ألمها كان أكبر لقولها « اي زوج تعس سترمي به الاقدار اليك» . .

ومزقتها الاهانتان . . وضاق صدرها حتى احست بضلوعها تكاد تتحطم . . ودق في اذنيها لفظ يحيل ايامها الى يأس مدمر .

ـ عانس . . انت عانس . . لا احد يرغبك . . وستعيشين ايامك رهينة هذه الجدران التي لا تنضح بغير التعاسة .

دلفت الى غرفتها في خطوات سريعة ، وانخرطت في بكاء مر ، ولم تسعفها في احلك لحظاتها كلمة مواساة واحدة ، كرهت نفسها اكثر مما فعلت في اي يوم مضى .

**

انتهى الحاج من صلاة العصر وانتعل حذاءه فيما عملت يداه في السجادة تلفها . وجاء الصغار من وسط الحوش وقد انتعلوا احذيتهم وسرحوا شعورهم ، وتحدثت عيونهم قبل ان تنبس شفاههم ، وتشاغل الحاج عنهم ووضع السجادة فوق سطح (الدولاب) العتيق الذي يحتل جزءاً كبيراً من مساحة حجرة نومه ، ونطق اوفر الصغار جرأة . .

ـ نحن مستعدون . . هات اعطنا ثمن التذاكر . . سنعود قبل حلول الليل .

وقبضت يد الحاج على القطع المعدنية التي تثقل جيبه فأعطى كلا منهم مائة درهم ولكن صوتا محتجا صرخ في دلال :

ـ بم نشتري الحلوى والمكسرات ؟؟

وقذف بعشرة دراهم لكل منهم .

وخرج .

وخرجوا من خلفه محدثين ضجة مرحة .

وتمنت حليمة لو كانت ولدا لتنعم بكل هذا الدلال ، وحسدت اخوتها على سعادتهم ولون حياتهم واستاءت لفكرة انها تحسدهم ، وعالجت استياءها بأن احتضنتهم في خيالها وابتسمت لشقاوتهم وخبثهم .

الساعة كانت الخامسة ، والبيت كان خاليا الا منها ، وتحركت في خطوات متألمة تبحث عن شيء تفعله ، وانتهت من جولتها الصغيرة بين الجدران دون ان تصل الى شيء . . واستغرقت في تأملاتها من جديد ، وتساءلت في أسى الى متى ستظل في سجنها هذا تلوك وحدتها وسأمها ، وشعرت بضيق يجثم على صدرها رأت ان تزيله بأية حركة . وتنبهت الى وجود

مجلات في « المربوعة » التي يعسكر بين جدرانها محمود ، وقعدت على سرير اخيها تتصفح احدى المجلات التي تزدحم صفحاتها بصور البنات . وتوقفت عند صورة فتاة تكاد تكون عارية . واستغربت للمرة الالف كيف يسمح اهل هذه الفتاة لابنتهم ان تنشر صورتها وعلى هذه الشاكلة بالذات ، وبررت هذا الفسق بـ « ما بعد الكفر ذنب » وتمنت ان تعرف ما تقوله المجلة عن لفتات العارية ، وطفت على السطح عقدة الامية فرمت بالمجلة في غضب ونهضت .

صافحت عيناها الاضواء المنبعثة من النافذة ، وفرحت وأحست انها تطل على الحياة التي تتدفق حيوية عبر النافذة المواربة ، وتملكتها رغبة في ان تطل من النافذة على الشارع ، واغتال سأمها كل مخاوفها ، وأتت على ترددها بخطوتين خطتهما الى النافذة في جرأة لم تتعودها في نفسها من قبل ، وأطلت على الشارع الكبير ، وتابعت عيناها السيارات المنطلقة في جنون ، وتمنت ان تجن كسائقيها لتندفع بعيدا ، ومر (كارو) يزدحم سطحه بالنساء والرجال والاطفال ، وحسدتهم جميعهم على نعمة النزهة التي يتمتعون بها . والتقطت اذناها اصوات الصغار الذين يلهون تحت نافذتها في

طفولة شقية ، وعاودتها ذكريات طفولتها التي كانت اوفر حظاً من صباهـا ، وابتسمـت لاطياف الماضي السـعيد ، وخالـت نفسها صغيرة تلهو في الشارع دون ان تثير انتباه احد . . ولمحت فتى في عمر اخيها محمود يقف على الرصيف المقابل لنافذتها ، وتأكد لها انه يراقبها فاختفـت خلف الستـار ولكنهـا فرحـت كطفلة وتلصصت عيناها تتابعحركاتهالتي يريد ان يخفي بها عن المارة غايته ، وتخدرت اوصالها وأحست بسعادة تطغى على كل حواسهـا ، وتمنـت ان يكون لهـا حب واحـلام ، ودغدغتهـا تخيلاتها الشابة ، وسرحت خلف مستقبل الايام ،والفتى الوله الـذي لا يكف عن الوقـوف ولا يمـل الانتظـار ، وأصـوات الخاطبات تملأ البيت مرحا وحياة ، والزغـاريد والدبلـة وايام العرس ، وعرف ثغرها لاول مرة بسمـة الـرضى ، وأزاحـت الستارة قليلا بيد مرتعشة فأباحت له فرصة تأملهـا للحظـة ، وارتـدت الى الخلف فزعـة ، وأحسـت بالاثـم ، وارتعـدت فرائصها حتـى كادت تقـع ، وقبضـت اصابـع متخشبـة على عنقهـا ، وجرتهـا يد قوية الى الخلف ، وبـردت اطرافهـا ، وخارت قواها ، واستسلمت لقدرها ، وجرتها اليد الى وسـط الحوش ، وانهالت لكمات محمود القوية حيثما اتفق ، وتقبلت

ضرباته دون ان تفر من عينيها دمعة او يصدر عنهـا صوت ، واشفى محمود غليله لكماً وركلاً ، ولملمت نفسها عن الارض في اعياء ولاحقتها كلماته الجارحة الغاضبة :

ـ ستلطخين ايامنا بالعار يا فاجرة . . انني بريء منك الى يوم الدين ، ولكنني سأمـوت كمـدا من افعـالك ، وقبـل ان اموت سآتي عليك . . انتهي منك . . كيف سأقابل الرجال في الشارع ؟ كيف سيرونني وسلـوكك المشـين من خلفـي حيثما ارحل ؟ يا رب ما هذه الواقعة السوداء ؟ ما هذه العانس التي أريد لنا ان نتحمل كل اعبائها ؟ كل اخطائها . . رحمتك يا رب . . رحمتك . .

●●

الشمس تغيب ، والاقدام تقل العائدين الى بيوتهم مع المغرب ، واصوات الامهات تأتي من خلف الابواب الموصدة تنادي الصغار ان يعودوا ، والصغار يدقّون الارض بأقدامهم غير عابئين لاهون بلعبهم عن كل شيء ، والحياة في الشارع الكبير تسعى الى الراحة والنوم ، والجارات يتسربن من بيت الجارة التي ولدت في اليوم السابق الى بيوتهن ، والحاجة تدير

المفتاح في القفل وقد ادهشها الصمت الذي يخيم على البيت والظلام الذي يلفه .

حولت الحاجة عنها « جردها » وتركته متكوراً في وسط الحوش وسحبت قدميها من « الشبشب » وأضاءت المصباح الكهربائي فغمر نوره الحوش ، ومضت في خطوات فزعة متحفزة الى غرفة الاولاد ودفعت الباب وأضاءت الغرفة واتقدت غضباً :

ـ سبحان الله. .اللهم لا حول ولا قوة الا بالله . . .لست ادري ما الذي يجعلني اعتمد على فتاة مثلك في شؤون البيت . .كان الاجدر ان انسى وجودك . .ان اعتمد على نفسي في كل شيء وأمري لله. . النوم . . النوم . . النوم . . تقضين جل يومك نائمة . . انهضي ايتها البائرة . . انهضي يا مضحكة البنات . . انهضي يا مصيبتي . .

وحليمة ملقاة على فراشها لا تتحرك ، مغمضة العينين لا تسمع ولا ترى ، مستغرقة في نومها العميق لا تأبه بما يدور حولها ، وخالت الام حليمة تدعي النوم ، تتحايل عليها بإعياء مفتعل حتى توقعها في طهو الطعام الذي كانت كلفتها به منذ

العشية ، وأعماها الغضب عن كل ما ترى ، واندفعت في ثورة الى حيث حليمة وصفعتها على وجهها مفرغة شحنة غضبها التي تعذب كل ذرة فيها ، وفتحت الفتاة عينيها في اعياء ، وبدت صورة الام الغاضبة مهزوزة غير واضحة ، وذعرت الام فيما عادت حليمة الى اغفاءتها ، وتحسست اليد العجوز الوجه الناعم في حنان مفاجىء ، وتلطخت الانامل بدم قليل ينزف من جرح صغير ، وفزعت الام للبقع الصغيرة السوداء المنتشرة على وجه ابنتها ، وصرخت الام بأعلى صوتها مولولة :

ـ ووك . . ووك . . ووك . .

وتدفقت جموع الفضوليين من الجيران والمارة حتى ازدحم بهم المنزل والتفت النسوة حول السرير بينما ظل الرجال في وسط الحوش يتساءلون في قلق :

ـ ماذا حدث ؟ . . ماذا يمكننا ان نفعل ؟

ومرق محمود من بين الرجال الى حيث تتجمع النسوة فأغلق باب الحجرة ثم التفت الى الرجال الواقفين في وسط الحوش يدفعهم الى الشارع في غضب . .

ـ لا شيء . . لا شيء . . اختي مرهقة وكفى . . سأتدبر الامر بنفسي . .

وخرج الرجال الى الشارع ، وأوصد محمود دونهم الباب ، وعاد محملا بشحنات من الغضب فركل باب الحجرة بقدمه ودلف الى حليمة التي وعت من لحظة بعد ان استنشقت بصلا مقشورا ، وحالت النسوة وولولات امه بينه وبينها ، وخرج مغلوبا لا يكاد يتبين اين يضع قدمه .

* * *

الساعة العاشرة مساء ، الصغار امام الشاشة الصغيرة يتابعون في مرح احدى المسلسلات والحاجة تجلس على نطع مستندة الى الجدار ، والشاي الأخضر يغلي على النار ، والحاج على كرسيه العتيق ينفث في قلق سحابات الدخان :

ـ ان انجاب البنات كارثة تصيب الرجال . . لو كانت ولداً لما حدث ما حدث . . ليته قتلها وأراحني منها ما دامت ألسنة الناس ستلوك فضيحتنا . .

ـ اذن فأنت توافقه على فعلته . . كنت اظنك تترقب

رجوعه لتثأر لابنتك المسكينة . . ولكنكم من طينة واحدة . . قساة . . قساة . .

ـ أسكتي . . انت التي أفسدتها . . البنت أم دون شك . .

وتركن الحاجة الى الصمت تجنباً لثورة ربما ذهبت حليمة ضحيتها ، وتجر حليمة قدميها الى غرفتها الموحشة بعد ان يئست من الجلوس الى الشاشة الصغيرة بجوار اخوتها ، وتضيق بها دنياها ، وتنبض جراحها ومواقع الركلات واللكمات بألم كبير ، وتلقي بجسدها المنهك على فراشها ، وتبلل مخدتها بالدموع ، ثم لا تلبث حتى تستغرق في نوم عميق ، تمتطيه صوب يوم آخر .

الحاج مسعود

الليل يخيم سكونه على المدينة النائمة ، والشوارع مقفرة تلوك ساعات الليل في ملل ، والطرقات غير المعبدة تنفض عن ظهورها الاتربة المسحوقة ، والرياح الخفيفة تتسلل لسعاتها الباردة الى غرف النوم عبر النوافذ والابواب فتقلق النائمين ، والمصابيح الكهربائية المتناثرة في انحاء متفرقة ترسل أشعتها الكالحة في اعياء ، والحاج مسعود على السرير العتيق الى جوار زوجته المنهمكة يستجدي النعاس ان يغرقه في نوم عميق ينتزعه مما اثاره حديثه وزوجته عن الانجاب من افكار ،ولكن أفكاره تقذف الى وعيه المتوتر بالسؤ ال في خبث ليتحرك لسانه في حلقه :

ـ الهناء . . الهناء يا حاجة أهم عندي من الاولاد . . أهم عندي من اي شيء في هذه الحياة . . نحن لم نعرف في حياتنا لحظة شقاء واحدة . . اننا سعداء . . مستورون . . فلنرفض الهواجس الخبيثة التي تثيرها احاديث الناس وتعليقاتهم ،

ولنعش حياتنا دون ان نعبأ بحديث احد .

وتململت الحاجة في فراشها وتمنت ان تجد في نفسها قدرة على رجائه ان ينام ، ولكنها عادت تجامله وقد عالجت اعياءها بما تأكد لها من حبه .

قالت :

ـ ولكن لا يأس يا حاج . . لا يأس ما دمنا نؤمن بقدرة الله . . ان الاطفال يملأون البيت سعادة وبهجة دون شك والحياة وسط ضجيجهم ومرحهم أحلى مذاقا وأوفر لذة .

ـ انني اعرف هذا يا حاجة ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ازاء ارادة الله سوى التذرع بالصبر والتعلق بالسعادة التي نصنعها من فلسفتنا لقضاء الله . . اسمعي يا حاجة . . حاجة . . حاجة . .

ولكن الحاجة لم تجب لانها كانت قد استغرقت في نوم عميق ، واستاء الحاج لنوم زوجته خلال حديثه اليها ، وتطوع حبه الذي عمر في قلبه لعشرين سنة طويلة مدافعا ، فالحاجة المسكينة تفتتح عينيها على الدنيا كل يوم مع آذان الفجر لتوقظ

الحاج فيتوضآن ويصليان صلاة الفجر ثم تعد الافطار بينما يجلس الحاج يرتل الآيات بصوت جهوري اعتاده الجيران وأحبوه ، وتنشغل المسكينة طيلة يومها وبعد ذهاب الحاج الى العمل بالكنس والتنظيف والغسل واعداد الاكل فلا يأتي الليل حتى يكون قد بلغ منها الاعياء مبلغا يفرض على عينيها المجهدتين الاستغراق في النوم والاخلاد الى الراحة . . فكيف يلومها ان اغفت بعد كل هذا التعب .

وابتسم في رضى ، وانتبه الى انه على بعد ساعتين من الفجر والى انه لم ينم بعد ، واستبد به القلق وحاول ان يغمض عينيه المسهدتين ، وأحس بما يشبه ذرات الرمل ففركهما بأصابعه مبسملا محوقلا ، وأزعجته فكرة ان يعمى ويفقد بصره فنهض مفزوعا وقعد على الفراش يدير عينيه في ارجاء الغرفة شبه المضاءة واستعاذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، وهمس لنفسه بآية الكرسي ثم تمدد من جديد ، واستيقظت الحاجة على تململ الحاج ، وبدت في عينيها الدهشة :

ـ ألم تنم يا حاج ؟

ـ عيناي يا حاجة . . انني أحس بما يشبه الرمل فيهما حتى انني اعتقدت انني سأعمى .

ونهضت الحاجة فقعدت وبدا على وجهها الفزع :

ـ أوه يا رب . . أرني عينيك . . قم أرنيهما . .

وقعد الحاج وتحركت الحاجة فواجهته وامتـدت اصابعهـا تفتح عيني الحاج على اتساعهما وتتفحصهما في لهفة ، ونفخت الحاجة في عيني الحاج حتى كادت ان تجعلهما تدمعان معتقدة انها ستزيل ما علق بأهدابهما من تراب وتراجعـت الى الخلف قليلا ثم عادت تسأل الحاج :

ـ ها . . أما زلت تحس بشيء ؟

ـ آه يا حاجة . . ما زلت احس بالالم ذاتـه . . . ليتنـي استطيع ان افعل اي شيء لايقافه .

وانخرطت الحاجةفي بكاءمفاجىءوافرغت آلام حرمانها من الابن البار الذي يرعاهما في الشدة والرخاء بحنانه ووقوفه الى جانبهما في عبراتها التـي أبـت ان تنتهـي رغـم كلمات الحـاج المواسية :

ـ ليتني لم احدثك . . ليتني لم اقل لك كلمة . . لكنها تجربة ستعلمني في المستقبل كيف اخفي عنك آلامي . . . كفاية يا حاجة كفاية ارجوك . .

ـ انت لا تعرف مبلغ حزني كلما أحسست انني احرمك بعقري من الابن الذي يرعاك في شيخوختك وعجزك . . . لا بد ان نجد حلا . . اعني نجد حلا لهذه المشكلة . . انت لم تتعد الاربعين . .

ولم تستطع الحاجة ان تكمل حديثها ، وعز عليها ان يتزوج الحاج بغيرها من النساء بعد العشرة الطويلة والايام الهنيئة التي شهدتها حياتهما معا ، ومد الحاج يده فاحتضنها ودس رأسها في صدره ، وقال في كلمات غالبها الحياء :

ـ انت يا حاجة كل شيء في دنيتي . . صدقيني يا حاجة انت كل شيء ولا يمكنني ان اتخلى عنك ابدا . . سنعيش حياتنا ولن يفرق بيننا سوى الموت بعد عمر طويل يا حاجة . . ثم من ادراك ؟ اذ ربما اراد ربي ان يجنبنا شقاء ابن عاق ، يضل السبيل فلا نجني من ورائه منفعة ويتساوى وجوده بعدمه .

ولف الصمت الزوجين من جديد وغالب النعاس عيني

الحاجة واسترخى الحاج في شبه غيبوبة وقد أنسته دموع زوجته ولوعتها آلام عينيه .

**

الطرقات سريعة عنيفة متوالية تكاد تخلع باب البيت المتواضع ، والاصوات مرتفعة تداخلت كلماتها لغطاً لا يفهم منه شيء ، والحاج ينهض مفزوعا ومن خلفه الحاجة التي ألحت عليه ان يمسك بعصاه ويستعد لما يخفيه عنه قدره ، وسؤال يدق في رأس الزوجين فيجعلهما يرتعدان .

ـ ماذا يحدث خلف الباب ؟

وفشلت محاولة الحاج في ان يسترد انفاسه عند وقوفه على بعد شبر من الباب ، وخرجت كلماته تلهث خلف الاجابة :

ـ من الطارق ؟

ـ شرطة . . افتح لو سمحت . .

وتصبب العرق باردا فكسا كل جسده وتنفس الطمأنينة التي افتقدها للحظات ورمى بالعصا عبر السقيفة الى وسط الحوش ، ودفعت يده المزلاج عن الباب ، ووجد نفسه امام

شرطي الدورية وشاب لم يتعد العشرين بأي حال ، وعقدت لسانه الدهشة فلم يستطع ان ينبس بكلمة ، ولكن الشرطي حدثه :

ـ سامحنا يا سيدي الحاج . . قبضت على احمد خلال تسلله عبر عمود النور الى سقف بيتك . . لم اكن اعرف انه ابنك فاعتقدت انه جاء يسرقك . . لكن . . معذرة . . هل هذا الشاب ابنك ؟

وحدق الحاج في عيني الشاب الذي بدا كسيراً يحتاج العون ، ورحل خيال الرجل الى متاهات بعيدة ، فخاله ابنه ، وخاله يتعرض للموقف ذاته ، وحن قلبه على الشاب وتمنى ان ينقذه ويهديه فيتجنب خطره ويجنب الناس شره ، وتحرك الخير في الانسان ، وكاد الحاج ينطق لو لم تأت كلمات الشاب الذليلة المتوسلة :

ـ سامحني يا ابي . . لن اعود الى فعلتي هذه بعد اليوم . . لن أتأخر في السهر خارج بيتنا ابدا . . سامحني . . سامحني . .

والتقط يد الحاج يقبلها وقد كاد يركع ، وكادت الدموع ان تطفر من عيني الحاج ، فازدرد ريقه والتفت الى الشرطي :

ـ شكرا لك يا اخي . . انه ابني . . سأعرف كيف أربيه . . ولكن ان وجدته ثانية فخذه الى المركز دون ان تبلغني عنه لانني لا اريد لاولادي ان يسهروا حتى ساعات الصباح الاولى خارج بيوتهم . . شكراً ..

ـ سأسامحك هذه المرة لاجل ابيك العجوز ولكن احذر ان تعود الى التسلل ليلا عِبر الاعمدة والسقوف . . لن ارحمك في مرتك القادمة . . السلام عليكم . .

وتحرك الشرطي في خطوات بطيئة الى الناصية ، ودفع الحاج بالشاب الى السقيفة ، ودخل من خلفه فأضاء المصباح الكهربائي واغلق الباب واقتاد احمد الى « المربوعة » دون ان يتكلم كلاهما ، واشار الحاج الى الشاب ان يجلس واطرق برأسه الى الارض ، وقعد الحاج على حافة السرير الذي يحتفظ به لضيوفه :

ـ لم تسلك هذا السلوك يا ابني ؟ انت لم تزل شابا وأمامك كثير من الفرص . . ولم لا تعمل فتكسب لقمتك بالحلال وتجنب نفسك ما تتعرض له من اخطار . . . انت تجني على نفسك دون ان تدري . . انك منساق وراء أفكار

خاطئة . . ألا تخاف ربك ؟ قل . . الا تخاف الله ؟ .

وظل الشاب على صمته مطرقا لا ينطق بكلمة ، وأحس الحاج انه بالغ في تقريعه له وتلمس للشاب الاعذار ، فالحاجة ملعونة والانسان امام الظروف الصعبة لا يعي تصرفاته اذ يتلاشى امام عينيه الفاصل الدقيق بين الخير والشر ، والصواب والخطأ ، وتلذذ خياله بالمعروف الذي أسداه للشاب ، وتمطى ثم وقف :

ـ اسمع . . ابق حيث انت . . تستطيع ان تستلقي على هذا السرير ان شئت الى الصباح الذي لم يعد بعيدا . . وسأدعو لك ان يهديك الله . .

وتخطى الحاج عتبة « المربوعة » الى السقيفة فاصطدم بالحاجة التي كانت تتابع الاحداث والكلمات في خوف ، وفزع الحاج ولاحظت الحاجة فزعه فابتسمت رغم ما يعتمل في داخلها من مخاوف وتأويلات ، وثار الحاج لشجاعته المهانة فصرخ في الحاجة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ . . ادخلي . . اعوذ بالله . . ادخلي . . ألا تسمعينني ؟

وسبقته الحاجة الى غرفة نومها ، وألقى الحاج بجسده المنهك على الفراش ، ووقفت الحاجة في وسط الغرفة متسائلة:

- أتريد ان تنام ؟

- لا . . لن انام . . كيف انام وذلك الشاب في « المربوعة » ؟ ثم ان أذان الفجر ليس ببعيد . . ولكن اسمعي . . اذا احببت ان تنامي فنامي وسأوقظك عند الأذان .

ومضت الحاجة الى الفراش الذي اغراها اكثر مما فعل مع الحاج ، وعاد الصمت يلف المكان من جديد ، ومرت لحظات الصحو متعبة لا تكاد تحتمل ، ومل الحاج تململه في فراشه وانتظاره الأذان ، وغط الزوجان في نوم عميق .

* *

الساعة الحادية عشرة صباحا ، وقرص الشمس يرسل بأشعته الملتهبة الى كل مكان ، وضجيج في الشارع وحركة وحياة ، والحاجة في فراشها على بعد صفر من اليقظة ، وشخير الحاج ينغص اغفاءة الحاجة التي بدأت تتململ لتنهض ، وفتحت عينيها لتفاجأ بأشعة الشمس وقد اغرقت الغرفة بنورها المتوهج ، وقفزت من فوق السرير الى وسط الغرفة ،

واستعرضنت مخيلتها في لمحة احداث ليلتها البارحة ، وصرخت :

ـ حاج . . يا حاج . . يا حاج . .

ونهض الحاج ، واندفع الى « المربوعة » حافيا ، واطل برأسه من خلال الباب الموارب ، ومسحت عيناه في حنو الاب ملامح وجه الشاب المستغرق في نوم عميق ، واستدار ، والتقت عيناه بعيني الحاجة فتعانقت في حب ، وهمس الحاج :

ـ اعدي لنا افطاراً جيداً . . .

وابتسمت الحاجة ومضت الى المطبخ لتعد للحفل الصغير ، فلقد انجبا اخيراً . . انجبا ولداً مكتمل النمو . .

لمسات الهوى

صفق الباب خلفه في غضب ودلف الى السقيفة في خطوات سريعة متحفزة فاصطدم قدمه بلعبة ملقاة على الارض كان ابقاها احد اخوته الصغار ، وتوقف للحظة ، ثم ركل اللعبة بقوة حتى طارت فاصطدمت بالجدار المواجه واحدثت صوتا مزعجا جاءت الام على اثر سماعه من وسط الحوش مستفسرة :

ـ ما الذي يحدث ؟

وقرن احمد حاجبيه وثبّت عينيه في عيني امه محتجّاً على تدخلها :

ـ أنتم . . ما الذي يعنيكم في الذي يحدث ؟ ! . . لا شيء على الاطلاق . . دعوني فقط . . ان اموري لا تهمكم . . لا تهمكم ابدا . .

وترك امه واقفة في السقيفة ، وتحرك الى « المربوعة » وقعد على السرير لتعمل يداه في حذائه تخلعه ، ولحقته امه ، ووقفت عند الباب متابعة يديه المرتجفتين وانفاسه المتلاحقة :

- ماذا حدث؟ . . أرسبت في الامتحان ؟ . .

- . . .

- أجبني . . أرسبت في الامتحان ؟

وقذف بحذائه بعيدا وامتد على السرير وقد رفع عينيه الى السقف :

- نتيجة الامتحان لم تعلن بعد ، فهل يمكنني ان انعم بلحظة هدوء في هذا البيت ؟ ! . . اغلقي الباب من خلفك ودعيني لوحدي . .

وتمهلت امه قليلا تتفحصه بعينين خبيرتين ، وتأكد لها ان ابنها الذي ربته تسعة عشر عاما ففهمته خلالها خير فهم يعاني من مشكلة اكبر من ان يقدر على حلها ، وابتسمت بينما امتدت يدها الى اكرة الباب تغلقه ، فثورة احمد سرعان ما ستتلاشى ليأتيها ضحوكا سائلا نصحها .

وشرد احمد .

لست صغيرا . . ابدا . . اني اكبر من انتسخرمني ، من ان تتخذني تسلية ، كنت اظنها تحبني ، تحبنـي كما احبهـا ، تحبني بصدق ، ولكنها لا تختلف عن غيرها من بنات اليوم . . لعب . . لعب . . مجرد اضاعة للوقت ، ولكنه ذنبـي والا لما احببتها ، لما اعطيتها قياد احلامي وآمال غدي .

وأحس بالدنيا تضيق ، وجدران الغرفة تقتـرب وتقتـرب حتى تكاد تطبق عليه ، دمعت عيناه ورأى الحياة اتفـه من ان تعاش بدون نعيمة ، نعيمة التي احبهـا بكل حرمانـه ، بكل شوقه لكلمة الحب الحانية ، بكل صبره طيلة سنواته القاحلة .

وخال وجهها الصغـير بملامحـه الدقيقـة المعبـرة ، وعينيها الواسعتين العسليتـين ، وابتسامـة ثغرهـا التـي تفيض حنانـا وعذوبة وصفاء .

ـ اسمع يا احمد . . اني اقدر لهفتك على رؤيتي لان نفسي تجيش بذات القدر من اللهفة ولكنني اخشى كلام النـاس . . اخشى ان تتناولنا السنتهم القذرة . . انني ارجوك يا احمـد ان تمتنع عن المرور من شارعنا . . .

- ولكن . . كيف اراك يا نعيمة . . ان انا . .

- سنكتفي بلقاء واحد في الاسبوع . . ستجدني عشية كل يوم جمعة عند ضريح المرابط . . انني ازور وأمي ضريحه عشية كل يوم جمعة . .

واختفى وجهها الصبوح العذب، وانتبه الى انه في ظلام غرفته الدامس يجتر ذكرياته ، وتأوه في حسرة وكوّر قبضته بشدة ولوح بها في الهواء وكأنه يتوعد احزانه ، وأيقن انه اتعس انسان ، وتألم لتعاسته وعاودته دموعه من جديد .

اين اختفت يا الهي ؟! . . الى اين رحلت دون كلمة وداع واحدة ؟! كيف ارتضيت ان تغيب عني اربعة عشر يوما كاملا ؟ ألم اكن حبها الوحيد الذي تفاخر به امام زميلاتها ؟ . . ولكنها اصغر من ان تحب . . ان ستة عشر عاما زمن لا يكفل نضوج المرأة . . لا يكفل فهمها للمشاعر كما يجب ان تفهم . . لو كانت اكبر قليلا لما لعبت . . لما امتطتني في فراغها . . . ولكن . . لا يمكن ان تكون نعيمة كذلك . . . انها ناضجة ، عاقلة ، تعرف الموضع الصحيح لقدمها . . . يا نعيمة لمن تركتني ؟!!

ردق باب البيت بعنف دقات سريعة متوالية ، واندفعت مجموعة من الصغار الى السقيفة مثيرة ضجة كبيرة ، وشعر نحوهم بكره مفاجىء ونهض في غضب ليفتح الباب ويصرخ فيهم :

ـ اخرجوا . . اخرجوا يا كلاب . .

وقبضت اصابعه على عنق اخيه الصغير وصفعه على وجهه فوقع الصغير على الارض مولولا بينما اندفع بقية صغار الجيران نحو الباب يفتحونه ويلوذون بالشارع ، وجاءت الام مستاءة ، فرفعت الصغير الى صدرها تكفكف دموعه :

ـ يا احمد يا ابني . . قم الى الحمام فاغتسل ثم غير ملابسك واذهب الى الكورنيش . . الى الحديقة العامة . . الى دار الخيالة . . قم يا ابني ولا تسجن نفسك عشية هذه الجمعة في غرفتك . . ساعطيك دينارا . . انتظر . .

وتركته الى غرفة نومها . فعاد احمد الى « المربوعة » وانتعل حذاءه وصفق باب البيت خلفه دون كلمة .

شوارع المدينة تضج بالحياة والحركة ، وقدماه المتعبتان

تبدآن رحلتهما العاشرة إلى حيث تقيم نعيمة، واليأس يقبر في نفسه اية بارقة امل ، وخاطرة سريعة تدفع الى شفتيه بابتسامة طارئة ، وتنشط قدماه حتى كاد ان يجري وقد سيطرت الخاطرة على تفكيره تماما ، وانتبه الى انه يقف امام دكان الجزارة الملاصق لبيت نعيمة .

- نعم . . تفضل . .

- عفوا يا سيدي ولكن ابحث لاسرتي عن سكن ، ولقد بلغني ان البيت الملاصق لدكانك معروض للايجار .

وابتسم الرجل في طيبة خالها احمد خبثا ، وأحس ان الرجل يدرك غايته فارتعد حتى كاد ينسحب ، ولكن كلمات الرجل شدته :

- ابدا . . انه منزل الحاج منصور . . والحاج منصور ما زال مقيما فيه . . . لعل الذي روج للشائعة سفر الحاج واسرته الى طرابلس منذ اسبوعين .

ورأى احمد ان يغطي انسحابه :

- الا يوجد اي سكن للايجار في شارعكم هذا ؟ .

ـ انني آسف . . لا يوجد . .

ولوح احمد بيده محييا واستدار ليتحرك في خطوات نشطة بعد ان وضع يده على سر غياب نعيمة عنه ، وأحس بأنه ظلم نعيمة وبأنها تحبه وتحبه كثيرا وان حبهما اكبر من ان يتعرض لمثل هذه التفاهات ، واغمض عينيه ثم فتحهما على اتساعهما ، وازدرد ريقه ، وتمهلت نعيمة ثم وقفت قبالته وقد ازدان ثغرها بابتسامتها العذبة :

ـ احمد . . كيف حالك يا احمد ؟

وذابت ثورته وتلاشى غضبه وتضاعف احساسه بأنه ظلمها وبأنها تحبه . . تحبه . . تحبه .

ـ حالي ؟ . . اين كنت ؟

ـ سافرنا الى طرابلس فجأة . . لم اكن اعلم يا احمد بأمر السفر . . صدقني . . لم استطع ان اتصل بك لاخبرك . . لقد كان الوقت ضيقا . . تعذبت كثيرا لانني اعرف انك ستسيء بي الظن .

وانتبها الى انهما يقفان في الشارع وان العيون ترصدهما في

فضول كريه فاستأذنت عينا نعيمة في حياء وتحركت في خفر .

ـ سأراك غدا في الحديقة . . . عند الخامسة . .

وتدفقت دماء الحياة في عروقه من جديد وطغت السعادة على مشاعره فكاد ان يضحك وسار في خطوات خفيفة غير عابىء بشيء ، فالحياة هي التي يعيشها داخله اما ما يحدث خارج ذاته فهي حياة الآخرين وحدهم ، وتمنى الا يلتفت الناس الى غير انفسهم حتى يتمكن من لقاء نعيمة كيف شاء ومتى شاء واين شاء .

نقر الباب بخفة مقلدا لحنا شعبيا مرحا ، وفتح الباب فدلف الى السقيفة ليحتضن امه ضاحكا :

ـ سامحيني يا امي . . سامحيني . .

وبهتت الام ولكنها بادلته ضحكته ، فمضى الى الحمام واغتسل ثم عاد الى « المربوعة » مدندنا بأغنية تحبها نعيمة ، وارتدى بدلته على عجل ، وسبح في سماء « المربوعة » والسقيفة فوسط الحوش كريشة ثم نادى امه مداعبا :

ـ امي . . . ا . . م . . ي . .

وخرجت امه من وسط الحوش وقابلـت مرحـه بابتسامـة حانية .

ـ نعم .

ـ لقد نفّذْت جميع تعليماتـك . . اغتسلـت . . ارتـديت بدلتي الجديدة . . وهأنذا في انتظار الدينار .

ـ بكى اخوك كثيرا ثم نام . . ما كان يجب ان تضربـه يا احمد . . ان تحطم كبرياءه امام الصغار .

واندفع الى غرفـة نوم امـه ، ووجـد الصغـير ملقـى على السرير يغط في نوم عميق لا تقلقه الا عبرات متباعدة ، فرفعه وقبله في جبينه ، وفتـح اخـوه عينيه لينخـرط في بكاء طفـولي وليتملص من بين ذراعيه ، وقابل احمد بكاء اخيه وتملصه بروح مرحة وشرع يدغدغه ويداعبه الى ان كف عن البكاء وعاتبـه بعينين دامعتين :

ـ لماذا ضربتني ؟ . . . انني لم افعل اي شيء . .

ـ كنت نائما فأزعجتني واصحابك بضجيجـكم . . وعلى كل حال سامحني . . لن اضربك بعد اليوم ابدا . .

وطاب خاطر الصغير واشترط ان يصحبه احمد معه الى دار الخيالة ووافق احمد بينما امتدت يده تنتزع الدينار من بين اصابع امه في خفة .

ـ لست ادري لم كل هذا الاحتراق يا احمد ؟ . . ان النجاح والرسوب بيد الله يا ابني فدع الامور له يسيرها كما يشاء سبحانه ، ولا تنس انك صغير وان الدنيا ما زالت قدامك . .

وأجاب أحمد في خبث كادت عيناه تنطق به :

ـ ولكنني ذاكرت كثيرا كما تعلمين وقد خلت نفسي راسباً فعز علي ان ارسب بعد المجهود الذي بذلته ، لكن الدنيا ما زالت امامي بكل اغراءاتها وفرصها . .

وأعدت امه اخاه ونادته مستعجلة اياه فجاءها صوته من وراء باب « المربوعة » المغلق :

ـ لحظة . . لحظة واحدة . .

واشبع صورة نعيمة تقبيلا ثم اخفاها في جيب معطفه ، وفتح باب الغرفة وامسك بيد اخيه وخرج الى الشارع .

ومضى يحلم .

الدنيا ما زالـت امامـي . . سأفعـل الكثـير . . سانجـح وانجح وانجح وسأتـزوج نعيمتي الحبيبـة وسـأعيش حياتـي الرائعة في ربوع احلامي .

وضغط على اليد الصغيرة المختفية في كفه وخالها يد ابنه في طريقهما الى دار الخيالة واحاطته حالة من الفرح سرت في كيانه بهجة فاضت بها عيناه وثغره وملامحه وخطواته .

اللحظات الحرجة

قرع الجرس فأحس بقلبه يغوص بين جانبيه ، وبمسام رأسه تفرز عرقا ساخنا ، وبوخزات حادة داخله ، وبركبتيه تخوران حتى كاد يترنح ، فأغمض عينيه لبرهة ثم فتحهما فاهتزت ملامح الطلبة والطالبات امام ناظريه ، واختلط لغطهم وضجيجهم بأصوات اقدامهم تدق الارض مهرولة ، فهز رأسه في عنف كأنه يمنع الاصوات من ان تدق طبلتي اذنيه فتزعجه .

ـ هيا يا سالم . . . هيا . . انت تجلس امامي مباشرة ويمكننا ان نتعاون الى ابعد حد . . ألا تسمعني ؟!

وارتفعت اليد عن كتفه وانتبه الى وجود طالب يحدثه ، ادرك كل كلمة قالها ولكن بمنتهى البطء ، التفت الى الخلف ، اصطدمت عيناه بعيني سعيد تبتسمان في خبث :

ـ هيا يا سالم . . . هيا يا رجل . .

ليلة البارحة كانت ليلة مزعجة ، مكتبه الصغير واكوام الكتب والكراسات وقصاصات الورق وسحابات التبغ و«ترمس» القهوة ودقات المنبه المنتظمة وعواء كلب جائع وصوت نصف نائم يأتيه بين الفينة والاخرى :

ـ ارقد يا سالم . .

بحور العرق والنافذة المفتوحة على مصراعيها ، وهواء الغرفة الميت ، والفكر شبه مشلول .

ـ . . ويقال عن بعض التصورات انها متناقضة في ذاتها ، ويقصد بذلك اننا لو حللنا التصور المتناقض الى الاحكام الممكنة التي . . .

لم لا اعتذر ؟! . . لا . . لا . . العذر يقبل لمرة واحدة . . واحدة فقط . . لا بد ان اشترك . . انني سالم . . سأشترك وسأنجح . .

ـ هيا يا سالم . . خلاص . .

وتحرك في خطوات متثاقلة فاجتاز الممر الى قاعة الامتحان ، وتوقف عند المدخل ، واجال النظر في الوجوه

الكالحة ، كلها كالحة رغم ادعاء بعضها المرح ، اعترته طمأنينة مفاجئة ، تنفس بارتياح .

ـ ادخل .

نظر الى الاستاذ . . ابتسم . . لم يبادلـه الابتسـام . . . سلمه ورقة بيضاء .

اسرع . . لا تنس البيانات . .

جلس الى مقعده ، اخرج القلم وعبأ الفراغات ، وضع القلم امامه على الدرج ، احس برأسه ينغلق ، بتفكيره يتوقف تماما ، عيناه ترى وجوه الطلبة واالطالبـات ، ترصـد حركات ايديهم وارجلهم ، اذناه تسمعان الوشوشـات ، مجـرد كلمات خافتة لا تعني اي شيء ، الاصـوات الهامسـة التـي يسمعهـا يعرف فقط انها كلمات ، هكذا يسمونهـا ، ولـكن ماذا تعنـي الكلمات اذا رتبت بطريقة معينة ؟ لا يدري . . . انها اصوات وكفى . . . اصوات فقط . . . كذلك الكلمات المكتوبة . . . لا شيء يعني لا شيء . . .

كل الاشياء لاتعني شيئا .

كيف سيفهم معاني الكلمات المرتبة بطريقة معينة لتسأل عن شيء معين ؟ . . انه لا يدري على وجه التحديد . . . الحرف مجرد خط . . الجمل مجموعة كبيرة من الخطوط . . الحر لا يطاق . . . نزع حذاءه . . نزع جوربه . .

ـ انظر أمامك ولا تتحرك .

دق الجرس . . . امتدت اصابعه الى جيبه ليخرج علبة السجاير . . . اصطدمت اصابعه بالقصاصات الصغيرة . . . لدغته . . اخرج يده بسرعة . . اسقط علبة السجائر . . انحنى ليلتقطها . . .

ـ ١٠٨ قف .

وقف بعد ان التقط العلبة ، اصطدمت عيناه بعينين جاحظتين ، صار صوت انفاسه مسموعا ، بلع ريقه لاكثر من مرة .

ـ ماذا كنت تفعل ؟

جف ريقه ، شاء ان يحرك لسانه فعجز ، حاول ان يبلل لسانه وشفتيه ، فمه يابس ، لسانه من خشب ، تطوع صوت من خلفه :

ـ سجائر وقعت يا استاذ . . سجائره . .

ـ اجلس وكف عن الحركة . .

تهاوى على المقعد ، اوجعته صلابة الخشب أحس باعياء ينيم كل اعضائه ، أغمض عينيه ، رجح فكرة ان ينـام . . . خاف ان ينام . . .

ـ دع الورقة مقلوبة .

ـ اقلب الورقة .

اشعل سيجارة ، ومسحت عيناه ورقة الاسئلة ، مجموعة هائلة من الخطوط المتباينة ، فتح عينيه على اتساعهما فاشتبكت الخطوط ، اغمضهما ثم فتحهما ودقق ، غمرته فرحة ، وعـى عقله المطلوب في السؤ ال الاول . . حسنا انتقل الى السـؤ ال الثانيّ . . قرأه اكثر من مرة . . . فهم السؤال اما الاجابة ففي القصاصة الثالثة حسب ترتيب القصاصات في جيبه ، السؤ ال الثالـث سيجيب على نصفـــه وكفـــى . . . عاد الى الســـؤ ال الأول ، قرأه من جديد ، كتـب على الورقـة البيضـاء (جيم واحـــد) . . قدح زنـــاد فكره . . ذهـــل . . لا شرارة من

معرفـة . . . لا شيء على الاطـلاق . . . نسي الاجابـة التـي طغت على سطح شعوره من دقيقة . . . احس بنبض الدماء في عروقه جميعها . . . وضع القلم امامه ، اشعل سيجارة ثانية ، رفع رأسه وحدق فيما امامه ، عينـاه مفتوحتـان ولكنـه لا يرى شيئا ، لا بد ان يصاحب الفكر العينـين في عملية الـرؤية ، تركيز العينين فقـط على الشيء لا يحقـق الـرؤية ، وعـي من جديد ، المكان قاعة الامتحانات ، الموجودات طلبة وطالبات واساتذة ومدرجات وسبورة طويلة وجدران واسلاك ومصابيح كهربائية وصمت تتخلله همسات واوراق اجابة واوراق اسئلة و . .

ـ مضى من الوقت نصف ساعة .

حسنا . . بقي من الوقت ساعة ونصف الساعة ، ومعنى ان يرسب انه سيطرد من الكلية ، وارتعش واندفعت اصابعه الى جيبـه دون احتياط فتحسسـت القصاصـات المرتبـة ، واحد . . اثنين . . ثلاثـة . . اربعـة . . القصاصـة الرابعـة تحمل اجابة السؤال الاول ، نزع يده من جيبـه بسرعـة على صوت أتاه من ورائه .

ـ ألم تجب يا سالم ؟!

كاد يلتفت ليبصق على وجه زميله ، ارعبه صوتـه ، كاد يجمده ، لم يجبه ، اكتفى بأن اجال النظر فيما امامـه ، جاءه الصوت من جديد :

ـ اكتب . . سأمليك الاجابة . . السؤ ال الاول .

ـ اش . . سكوت . . .

عاوده خوفـه ، ود لو اخـرس زميلـه بعنف ، سيكتشف الامـر وتحـرم عليه الدراسـة نهـائيا ، قرر الا يرد ، ويكتفـي بالصمت ، سيعرف زميله انه يرفض تعاونه ، سيكف .

ـ اختلفت الاراء حول مفهوم ن . . .

احس بشيء يسري في كل ذاته ، شيء كبصيص واه من الامل ومض في داخله ، قبضت اصابعه على القلم وكتب بيد مرتعشة . . . اختلفت الاراء حول مفهوم . .توقف . . . لا يستطع ان يضيف جديدا للاربع كلمات التي كتبها ، اصغى جيدا ، تمنى ان يأتيه الصوت الـذي ازعجـه بادىء الامـر ، انتظـر ، انتظر ، لا جديد ، لا عون من احد ، شطب الكلمات الاربع

التي كتبها ، وضع القلم امامه على الدرج ، امتـدت يده الى جيبـه ، تحسست اصابعـه القصاصـات ، اجـال النظـر في القاعة ، اطمأن الى عدم وجود من يراقبه ، قبضت اصابعه على القصاصة الرابعة ، التقطت اذناه انفاسا على بعد قدم منـه ، داهمه ارتبـاك جعلـه يرتجف ، تمـالك نفسـه ، اخـرج علبـة السجائر ، التفت ، اصطدمت عيناه بجسد ضخم ووجه لامع ونظارة طبية ، منحه الوجه ابتسامة حانية ، تملق الوجه بابتسامة مجاملة ، تحرك الاستاذ الى الطالب الذي يجلس امامه ، تنفس بعمق ، التفت الى زميله الذي يجلس خلفه ، رشاه بابتسامة ، وجده متجهما .

ـ سؤ ال رقم ثلاثة .

عاد الى سابق قعدته ، فطن الى انه ما زال ممسـكا بعلبـة السجائر ، اخرج واحدة ، اشعلهـا ، ملأ رئتيه بنفس عميق منها ، نفث الدخان نظر امامه ، التفت يمينا وشمالا ، اطمأن الى ان لا احد يراقبه ، امتدت يده في جرأة الى جيبه ، وصلت اصابعه الى القصاصة الرابعة ، انتزعها من بين القصاصات ، اخفاها في قبضته ، راقب القاعة من جديد ، اخرج قبضته ،

دس القصاصة في ورقة الاجابة ، استند الى المقعد ، شعر بارتياح ، انكب على الورقة ، تلصصت عيناه ، قرأ سطورا مكتوبة بخط بالغ الدقة ، غمرته فرحة ! اجابة السؤال الاول مضمونة ، انطلق يكتب ، انساه انهماكه كل ما يحيطه ، صفعته انفاس ساخنة على خده. التفت ، اصطدمت عيناه بذات الوجه اللامع وذات الجسد الضخم ، جمدت دماؤه ، احس بمدى ما يحدق بالمغامرة من خطر ، تصلبت شفتاه ، لم يستطع ان يدفع ولا ابتسامة صغيرة ، ظلت عيناه محدقتان في الاستاذ :

ـ حسنا . . ها انت تجيب . . استمر . . .

خطا الاستاذ الى الامام ، احس بأنه اجتاز المحنة ، لو رأى الاستاذ القصاصة لحدثت كارثة ، فضيحة ، مصيبة ، اخرج منديلا من جيبه ومسح العرق عن وجهه ورقبته ، طغت على السطح مجموعة هائلة من المشاعر المتباينة ، احس بارتعاش ، ما كان يجب ان يتهاوى الى هذا المستوى المشين ، كان دائما موضع احترام وثقة اساتذته ، كيف سيرفع عينيه الى الاستاذ المشرف اذا اكتشف جريمته ، والحر لا يطاق ، وجو القاعة مشبع بالتبغ والانفاس والقلق . . . و . .

ـ بقي من الوقت نصف ساعة .

ازعجه التنبيه ، نظر فيما حوله فاكتشف ان كثيرا من الطلبة انتهوا من اجاباتهم وغادروا القاعة ، مزق داخله ألم مفاجىء ، انت راسب على أي حال ، انت الذي قضيت شهرا كاملا مقيدا الى الكتب والمنبهات والسهر ، ماذا سيقول عنك الرفاق ؟ . انهمك يكتب ما تمليه السطور ذات الحروف الدقيقة .

انتهى من اجابة السؤال الاول ، نظر الى ساعة يده ، ما زال لديه من الوقت ما يكفي لاجابة نصف السؤال الثالث . . نصف السؤال الثالث ، يا للعنة ، ما يغطي نصف السؤال الثالث. غرق في اللاشعور ، دق بقبضته على رأسه ، حاول ان يتذكر ، لم يستطع ، التفت خلفه ، زميله منصرف الى ورقته ، كارثة ، ان اجابة مقتضبة كالتي دونها ولسؤال واحد لا غير لا تعني سوى انه سيخسر ما دفعه من اعصابه . . و . . جهده . . وتمنى لو لم يلجأ الى الاستعانة بالقصاصات اللعينة ، القصاصات المرتبة في جيبه بلّدت فكره، خدرت عقله ، جعلته يرمي بنفسه بين سطورها القليلة ليخدع الممتحن بمعرفة قليلة ، معرفة منقولة ، معرفة لا تمثله ولا تعطي الممتحن صورة صادقة عنه ، واحس بأنه بليد غبي غير شريف ، وتألم

شيء في داخله لوصفه ذاته بهذه النعوت ، ونسي وقرر ان يغامر ، فالوقت لا يتسع للشرود ، وامتدت يده في تلقائية الى القصاصة الثانية حسب ترتيب القصاصات في جيبه ، انتزعها من بين زميلاتها واخرجها من جيبه وكأنه لا يأتي عملا خطيرا ودون ان يطمئن الى عدم وجود من يرصد حركاته دس القصاصة في ثنايا ورقة الاجابة فوق سابقتها واستند الى المقعد وكأن شيئا خفيا نبهه الى وجود من يراقبه ، رأى ان يخادع فرفع يده ، وتنبه الاستاذ الواقف عند المدخل لاشارته فجاءه .

ـ قهوة يا استاذ .

ـ الوقت قارب ان ينتهي ، ما زال من الوقت خمس دقائق ، ألم تكمل ؟

التفت يمينا وشمالا ، اكتشف انه ونفر قليل من الطلبة والطالبات ، ذعر ، انصرف الاستاذ ، انكب على ورقة الاجابة ، تلصصت عيناه ، تحركت يده على الورقة ، انهمك في اجابة السؤال الثالث ، دق الجرس ، يا لسوء الحظ ، ولكنه سيصر على اكمال اجابة السؤال الثالث ، سيتوسل ، لن يفشل مهما كلفه الامر ، كل الطلبة يفعلون نفس الشيء ، الطلبة

يدخلون القصاصات في جيوبهم ويستعينون بها ، الجبـن عار وهو لا يقل شجاعـة عنهـم ، ووضعـت يد كبـيرة على ورقـة الاجابة ، سمراء بأصابـع طويلـة ، أنامـت الورقـة المرفوعـة الحاشية ، قلبت الورقة ، بدت القصاصات بمنتهى الوضوح ، التقطتها الاصابع .

مكتبه الصغـير واكوام الكتـب والكراسـات وقصاصـات الورق وسحابات الدخان ، و « ترمس » القهوة ودقات المنبـه المتنظمة وعواء كلب جائع وصوت يأتيه من قعر بئر .

ـ كشف امرك يا فالح !

الاصوات التي يسمعها يعرف فقط انهـا كلمات ، هكذا يسمونها ، ولكن ماذا تعني هذه الـكلمات اذا رتبـت بطريقـة معينة ؟ ! . . لا يدري . . انها اصـوات وكفـى . . اصـوات فقط . . لا شيء يعني لا شيء . . كل الاشياء لا تعني شيئا . .

بحور العرق والنافذة المفتوحة على مصراعيها وهواء الغرفة الميت والفكر شبه المشلول ، والأيام ، الأيام تدور والانسان بشر وبعض الاحلام تزعج الطيبين وصوت نصف نائم يأمره :

ـ ارقد يا سالم .

مسعود يعاكس مسعودة

الصيف ينفث لفحات الحـر ، الشـمس تحـرق الاخضر واليابس ، العائدون من اعمالهم يحدثـون ضوضـاء ، عجـوز يشتم سائق عربة كادت تدهسه ، طفل يرغم عابرا على شراء منديل ، وجهه كالح يلصق نعيا على جدار ، صبيان يتسابقون على الرصيف الأيمن .

وعلى الرصيف الآخر كانت تمشي في اعياء ، تدق بكعبها العالي الارض في وهن ، قفطانها قصير عصري زاه ، شعرهـا اسـود طويل متهـدل ، خصلـة سوداء تحجـب نصف عينهـا اليسرى ، صدرها يعلو ويهبط وفق تردد انفاسها ، الطريق يمتد امامها طويلا .

ـ يا مسعودة . . .

وتلاشى النداء في ضوضاء الشارع ، وغاص مسعـود في

اعماقه حتى القاع ، وكاد يتراجع ، فالكارثة لا شك تقبع على بعد خطوات ، لكنه عاد فأصر على مواصلة العناء ، وجر قدميه من ورائها ، عيناه تمسحان الشارع بحثا عن اي وجه يعرفه ، وفكره يعمل في كيف ينغم النداء التالي :

ـ يا مسعودة . .

وتلاشى النداء في ضوضاء الشارع مرة ثانية ، ووقعت الكارثة على رأسه ، احس وكأنه يفقد اتزانه ، فحتى مسعودة لا تعبأ به ، لا تهتم به ولا تكترث ، كان يجب ان يحتاط. كان يجب ان يضع خطة للانسحاب دون هزيمة ، ولكن فليواجه الموقف في شجاعة الرجال ، وليمض في ملاحقته اياها ساخرا مستهزئا ، فليهدّها كما هدّته .

تنبه مسعود جيدا ، فرد قامته ، تنحنح ، تجرأ ، رمى بسخريته :

ـ خدعوك بقولهم حسناء !

وبلع ريقه ، فرح ، اعتقد ان سخريته تلاشت في ضوضاء الشارع ، لكن مسعودة تسمرت في مكانها فتسمر من

خلفها ، حدقت في عينيه :

ـ ماذا تريد ؟ ألا تدعني وشأني ؟ !

ورغـم ان مسعـودا لم يتكلـم الا ان مسعـودة سمعتـه يهمس :

ـ انني احبك يا مسعودة . . . احبك . . اسألي اختي . . انني احبك . .

ونزلت كلماته بردا وسلاما على مسعودة ، لكنها اضطربت فقررت ان تتركه وتمشي ، ومشت ، وخـال في ملامحهـا أملاً ضئيلا فتشبث به ، تعلق بالقشة ، مشى من ورائها صامتـا ، لاحظ ان الطريق يقصر ويقصر ، همس :

ـ مسعودة . . ألا تجيبينني ؟ . . الا يمـكن ان نلتقـي ؟؟

وانفعلت مسعودة فضاعفت من خطواتهـا ، وانتعشـت بكلمات مسعود فتمهلت ، وعادت تنفعل فأسرعت ، ومسعود من خلفها يرجوها ان تجيبه دون جدوى ، وتسمر الاثنان للمرة الثانية :

ـ عال والله عال . . بارك الله فيك يا مسعود .

وتنبه مسعود فانفلت يجري ، وتنبهت مسعودة فنكست رأسها ، ودفعها والدها العجوز بعكازه فمضت كشاة تساق الى المذبح .

ـ هذه الكلبة لن تخرج بعد اليوم من البيت ابدا . . . ما زال والله . . هذه تربيتك . . هذه ابنتك . . اسمعي . . سأقتلها قبل ان تجلب لي العار . . أتفهمين ؟

وأجابته ام مسعودة :

ـ اسمع . . اسمعني . . البنت كانت عائدة . . كانت في طريقها الى البيت ، اعترض طريقها مسعود وعاكسها ، لم ترد عليه ، لم تكلمه ، ظل يلاحقها فلم تستطع ان تفعل شيئا .

ـ ولكن لماذا يعاكسها هي بالذات ؟ . . انت تجهلين كل شيء . . يا مصيبتي . .

دق المنضدة بعكازه في غضب حتى اهتز فنجان القهوة فكاد ينقلب ، لعن الشيطان الرجيم ، حدّق في عيني الرجل الذى يجلس قبالته ، رمى بالعكاز جانباً وكأنه يعتذر ، عنقر طاقيته ، فتل شاربه ، نفث غضبته بينما عمل فكره في الفضيحة التي تهدد كرامته .

ـ البنات بذرة ابليس النجس في كل بيت ، البنات نبت شيطاني كان العرب يقبرونه في لحظة مولده ، البنات آفة تصيب الرجال ، مسعودة بذرة نجسة ونبت شيطاني وآفة أصبت بها رغم انني لم ارتكب اي اثم منذ وعيت الخير والشر .

وخاف ان يسمع الرجل الآخر افكاره فمضى يتحدث :

ـ آخر زمن . . . مسعود يعاكس مسعودة . . بنت تستحي من ظلها تتعرض لاستهتار ابنك . . عال والله عال . . سترك يا ربي سترك . . واعتدل ابو مسعود في قعدته :

ـ يا سيدي سامحنا . . ولك ان عاكس مسعود مسعودة مرة اخرى . . لك علي ان اسلمه للشرطة بنفسي . . اما في هذه المرة فسأعرف كيف اربيه . . انني اعدك .

ـ ان كل هذا لا يفيد . . ما الذي يدريني بحالة البنت ؟ ربما هتك ابنك عرضها . . أف . .

وعرف ابو مسعود ان الرجل اصاب الهدف الذي يدور من حوله منذ مجيئه ، ونضب صبره ، لكنه رأى ان يلتزم الحكمة :

ـ استغفر الله . . ابنتك يا سيدي تستحي من ظلها ، ثم

انني اعتقد ان مسعوداً لا يمكن ان يتجرأ و . . انه مؤدب . . طيب . . صدقني . .

ولكن ابا مسعودة كان قد اتخذ قراره ، فاستأجر عربة وحمل مسعودة الى الطبيب ، فالرجل الشريف لا بد ان يطمئن .

كانت ام مسعود تنزل الحلة من فوق النار عندما طرق الباب بشدة ، وكان مسعود مستلقيا على فراشه يطالع كتابا ، وكان ابو مسعود يتوضأ في وسط الحوش ، وهب الجميع الى الباب غير ان ابا مسعود سبقهم اليه ، فتحه ، فوجىء بأبي مسعودة :

ـ اسمع . . انت مخير بين أمرين . . اما ان يستر ابنك ابنتي واما ان اقتله واقتلها ، لم اعش كل هذا العمر ليصيبني ابنك في كرامتي .

وكان ابو مسعودة يلهث ، وكان مسعود يقف في السقيفة ، أيمكن ان تؤدي كلمة حب واحدة الى كل هذه المشاكل ؟ ثم . . انسحب مهرولا الى غرفته ، أيمكن ان يتطور الأمر الى هذا الحد ؟ أيمكن ان تؤدي معاكسة فتاة الى الزواج منها ؟ . . .

وغاب مسعود في ذاته يبحث عن تبرير لكل هذا ، وتنبه بعد فترة على صوت ابيه كالرعد يدوي في ارجاء البيت الذي كان ساكنا :

ـ ولد حرام . . فضيحة . . فضيحة . . الطبيب قرر يا سيدتي . . الطبيب قال إن البنت ليست بنتاً . . هذا ولدك مسعود . . كبر . . اعتقدت انه سيعاونني . . وجدته يورطني . . واعاد ابو مسعود وضوءه ، ومضى الى غرفته فصلى المغرب ومسعود لا يكاد يفهم شيئا ، غير انه اغلق الباب بالمفتاح احتياطا وظل يسترق السمع بقلب واجف .

ـ وقعة سوداء . . سأبيع قطعة الارض . . لا بد من ستر مسعودة . . مسعودة بنت ناس . . اللهم لا حول ولا قوة الا بالله . .

وردت ام مسعود :

ـ سبحان الله . . ما زلت غير مصدقة ان مسعوداً . . . يمكن ان . .

وتأوه ابو مسعود وصمتت ام مسعود .

مضى الوقت بطيئا ومسعود في غرفته لا يكاد يعي ما يدور من حوله ، وانتبه الى وقع اقدام تقترب من بابه ، وخاف ان

يكون القادم اباه فأغمض عينيه بعد ان قرر ادعاء النوم ، لكن صوت امه جاءه من وراء الباب :

ـ افتح الباب يا مسعود .

وفتح مسعود الباب ، ونكس رأسه ، دخلت امه ، قعدت على طرف سريره ، لفهما الصمت للحظات ، تأوهت امه ، قالت منكسة الرأس :

ـ لو لم يقرر الطبيب . . لما صدقت . . لا اصدق ان ابني يمكن ان يعتدي على بنات الناس . .

وقال مسعود :

ـ انني لا اكاد افهم شيئا .

ونهرته امه :

ـ لقد فضحك الطبيب . . مسعودة ليست بنتاً، مسعودة . .

ولم تقو الام على اكمال الحديث ، وفهم مسعود كل شيء ، وتذكر في الحال أنه رأى مسعودة ذات مرة تركب سيارة خاصة في شارع خلفي ، لكنه كان قد تذكر في وقت متأخر .

ممنوع الخروج

ملأت رئتيها بهواء الصباح الرطب وتحركت خفيفة كريشة تداعبها النسمات متفتحة على الدنيا بعينين متألقتين متشوقتين الى لقاء خيوط النور التي ترسلها السماء ، وأحست بدفقة من التفاؤل ، والاشراق والرضى فاستسلمت لها تداعبها وكأنها امواج خفية تدغدغها في عبث بريء على صفحة ماء ، وبدت امامها الاشياء مبهجة تدعو الى الفرح والسرور ، وتخللت اظافرها الطويلة المزوقة جدائل شعرها الاسود المنساب على كتفيها ، وعالجت اصابعها خصلة تداعبها النسمات فنقلتها من فوق جبينها وأودعتها أم رأسها الى جانب الخصلات الاخريات في حنان ، وتنفست بعمق وكأنها تستنشق آخر انفاس الحياة ، وكادت كآبة ان تداهم محياها ولكنها رفضتها ، وعادت الخاطرة تلح عليها وتعاند رفضها لها ، فهزت رأسها في عصبية وكأنها تهم بإلقائها خارجه والتخلص منها . ما سيحدث غدا ربما

يحدث بعد غد ، فلتدع الغد جانبا ، ولتفكر في اليوم فقـط ، اليوم فقط ، امـا ما بعـد اليوم فلـه شأن آخـر ، وليحـدث ما يحدث ، ان اية قوة في الأرض لن تمنعها من لقاء محمود . . . ودهمتها ارتعاشة ، وصبغ داخلها بلـون جديد ، ودغدغتهـا فرحة مفاجئة ، فاستسلمت شفتاها لابتسامة نبعت من اعماقها وتخدرت اوصالها وغابت المرئيات عن عينيها وبـدت ابتسامـة تضيء في افق خيالها فاستحوذت على كل ادراكها .

الأمس كم يبدو قريباً ومحمود من خلفها مرتبكا على بعد خطوات منها ، تولد الكلمة في داخلـه لتمـوت على شفتيه ، يغتالها الخوف والخجل ويجبرها اصرارهـا على عدم الالتفـات اليه .

مسكين . . كم اعطى من اعصابه وكرامته ، كم احترق في خطواته المرتعشة امام رفضها ، وكم كابد من فك عقدة لسانه :

ـ سالمة . . اسمعيني . . سالمة .

كانت كلماته الأولى التي رددتها لكل زميلاتها في المدرسة وكأنها تصلي . . سالمة . . اسمهـا على شفتيه يأتـي في صوت مشبع بالرجاء ، يلح ان تسمعه ، ان تلتفت اليه ، ان تمنحه اي

رد كيف كان ، ولكنها كانت تصر على ان تدعي رفضه حتى لا يسيء فهمها ، وبلغ امد رفضها له حدا دفع عزيزة الى ان تلومها :

ـ سبحان الله . . . كأنك تحيين بلا قلب .

وابتسمت . .

غذت كلمات عزيزة غرورها ، أحست انها تقف على قمة عالية دون الجميع ، ويومها بالضبط ، قررت ان تعطيه الأمل .

توقفت فجأة ، التفتت اليه ، فوجىء بالتفاتتها فتسمر في مكانه ، حاولت ان تدفع اليه بابتسامة ، فشلت .

ـ نعم . . لم تلاحقني ؟ !

كان موقفه مضحكا ، ارتجف ، أغمض عينيه ، حاول أن يتكلم فتصلبت شفتاه ، سمعت صوت انفاسه ، كان السؤ ال قاسيا غير متوقع ، انتهت اللحظات المقررة للحديث معه ، استدارت ومشت ، ظل واقفا في مكانه ، اليوم الذي تلا يوم اللقاء كان يوما قاسياً ، توقعت قدومه ولكنه لم يحضر ، خافت

ان يكون قد صدم بموقفها منه ، تمنت لو لم تكلمه ، لو لم تره ، لو الغي ذلك اليوم من ايام حياتها ، لو اختصر من عمرها ، ظلت شاردة طيلة يومها ، عاتبتها المدرّسة اكثر من مرة :

- انتبهي يا سالمة . . . رجاء .

في المنزل أوقعت صحناً عندما كانت في المطبخ ، غضبت أمها للصوت الناجم عن وقوع الصحن الذي كاد ان يزعج اباها خلال نومه بعد الظهر .

لكنه عاد ، عاد في اليوم الذي تلا غيابه عنها ، وبدا يومها كئيبا شاحبا على غير عادته ، وهزتها تعاسته ، وتألمت لصدها المبالغ فيه ، وأحست بأنها تظلمه وتذله ، وانها تجني على عاطفة ربما تكون مفتاح سعادة ايامها .

يومها كادت تبدأه بالحديث ، تمنت ان تبادله التحية ، ان تقابل عيناها عينيه ، ان تعطيه بصيصا من رجاء حتى لا يغرق في قاع اليأس ، حتى لا تفقده ، ولكن الحياء منعها من ان تفعل .

تركته يبتعد على الرغم منها ، احسـت وكأن جزءا منهـا ينفصل عنها ، احست بأنها ربما انتهت ، ربما اساءت وضـع الخاتمة ، ولكنه كان يعود دائما ، يعود مع صبـاح كل يوم وفي عينيه إلحاح ، يشيعها بنظراتـه الكسـيرة وكأنه يعاند اليأس ويرفض الانصياع له ، يكتفي بذلك اللقـاء العابـر الـذي لا يتعدى اللحظات القليلة التي تستهلكها بضع خطوات .

وامتدت يده مرتعشة برسالته الأولى ، والتقطت أصابعـه في لهفة خطابها الأول، وصار للأيام طعم آخر وللقاءات لون ثان ، وخفق قلبها بالحب الحقيقي الذي حلمـت به منـذ أول خطوة خطاها محمود من خلفها .

ويا حبيبي . .

اذا قدر لحبنـا هذا ان يعيش ، ان يرى النــور ويصــير واقعاً ، اذا قدر لحبنا يا حبيبي ان يقيم عشاً صغيراً في طرف المدينة ، فستجد فيّ الزوجة الوفية المخلصة لبيتها وصغارها ، الزوجة التي تعرف كيف تدير مملكتها الصغيرة وتحولها الى جنة خضراء .

يا حبيبتي

تعلمين انني اعيش لهذا الأمل ، وانني عشت له رغم كل

ما عانيته في سبيل اقناعك وتعرفين انني لم استسلم لليأس ابدا ، لذا ، فاننا سنصير حبنا واقعاً وسنقيم بيتاً صغيراً في طرف المدينة ، وستجدين فيّ الزوج الوفي المخلص في جنتك الخضراء . . .

وابتسمت الأيام كما لم تبتسم ، وشبّعت كلماتها العذبة خيالها الشاب بأحلام عديدة تكاد من فرط ادمانها تراها واقعا يسلم بشرعيته ووجوده جميع من حولها .

ـ بيب . . . بيب . .

وأفاقت ، وادارت رأسها مفزوعة وكأنها لم تكن تنتظر منه ان يأتي ، ولكنه اتى بالفعل ، كان يبدو منسجما وسيارته الصغيرة المتمهلة في سيرها موازيةً للرصيف . وخافت ان ينتبه المارة فأشاحت له بيدها راجية اياه ان ينصرف .

وازدحمت الصور في رأسها وجلجلت الأصوات معلنة عن استنكارها ، وجه اسمر غير حليق بعينين قاسيتين لم يستضيفا حنانا في حياتهما ابدا :

ـ مكان البنت البيت . . . البنت تحفظ القرآن وقواعد

الإسلام وتنتظر نصيبها في البيت الى جانب امها تساعدها . . الخروج ممنوع .

ووجه شاب أسمر انيق متألق بعينين مرحتين يرد بعد فترة صمت بكلمات ذكية :

ـ لا يا والدي . . انني لا اوافقك . . . لقد تغير كل شيء . . كل البنات يذهبن الى المدارس الآن فلم نحرم سالمة بالذات ؟ ! . . انها اختي وأنا اعرفها . . ان معدننا اصيل وستكون عند حسن ظننا بها . . ثم اننا جميعا من خلفها . .

هرج ومرج ولغط وضجيج يأتي من « المربوعة » ، صوت اصطدام الشاي المنساب من البراد الى قاع الكوب يختلط بصوت نافذ يحتج :

ـ كل الفتيات سواسية ، ولكل فتاة صديق ، والبراعة تكمن في ان تستحوذ على قلب عذراء يا غبي ! .

المصباح المثبت الى جدار في وسط الحوش مطفأ ، وسالمة على رؤوس اصابعها في المطبخ تفتح الثلاجة لتتناول زجاجة ماء بارد وصوت أبيها يأتي هامسا في حديثه الى امها :

- والله البنت كبرت واخاف ان تفضحني ذات يوم . . . أتعرفين ماذا حدث مع ابنة الحاج ابراهيم . . انها . .

- انني انا التي ربيتها ، غربلتها دقيقاً وعجنتها خبزا وسويتها بالطريقة التي اتمنى فلا تخف . . ثم ان سالمة درويشة وليست كالاخريات . .

سأصنع ما لم يصنعه رجل ، سأفرش طريقك الى عشنا السعيد بالورود والرياحين ، ستطغى فرحتي على وجودي يوم التقي بك لنبدأ رحلتنا السعيدة حتى انني سأكون موجودا في فرحتي بك ، فرحتي بك فقط ، فاعطني من مشاعرك قدرا ولو قليلا من الكثير الذي اعطيك .

انني احبك يا سالمة . . احبك حبا لا يمكن ان يتصوره عقل ، ولا ان اوصف من جرائه بغير الجنون ، فاحذري ان تتركيني يا سالمة ، احذري ان تجني على انسان لم يفعل اكثر من انه احبك فأخلص .

- بيب . . بيب . .

وافاقت الى انه قد عاد من جديد فتضاعفت خفقات

قلبها ، ومسحت الشارع الطويل ووقفت ثم عبرتـه وسـارت على الرصيف الآخر نصف واعية ، وتملكها احساس بأنها تأتي لعبة خطرة وانها لو وفت بوعدها له وحدث ان رآها ابوهـا او اخوها او اي انسان يعرفها فان كارثة ستقع لا محالة .

ولكن . . ولكن . . اليوم آخر ايام خروجهـا ، لن تراه بعد اليوم ابدا ، سيقذف بها خلف الجدران بمجرد احضارهـا شهادتها من المدرسة ، لن تراه عيناها طيلة ثلاثـة اشهـر مملـة حارة ، سيجني على الحب الذي عاش عارما في صدرها ثمانية اشهر كاملة ، سينتهي ان لم تقابله ، سيظن انها تخلت عنه ، انها كانت تتخذه مطية لاضاعة الوقت ، ستحطم القلب الذي احبها ، اعطاها الأمـل بعـد أيام الخـواء المضـنية ، ثم ، عم ستحـدث جاراتهـا الشابـات في اوقـات الفـراغ الطويلـة المقبلة ؟ . . ألف سبب يدعوها لأن تقابلـه ، تحدثـه ، تتفـق معـه ، ثم انهـا لا تأتـي عيبـا ، لا تفعـل سوى ما تفعلـه الاخريات ، ومحمود يستأهل كل الثقة ، ولا يمـكن ان يسيء اليها متى انفرد بها ، سيرعاها بعقله قبـل حبـه ، لن يخـدش حياءها بكلمة ، سيكون دائما كما تراه في احلامها ، رقيقا عذبا مهذبا .

وعرجت الى شارع فرعي ، واسلمت نفسها لقدرها وللظروف ، وسارت في خطوات متعثرة وكأنها مرغمة على ان تعبر الشارع ، واستراحت الى عدم وجود من يراقبها ، وتمنت ان يقدم محمود في طرفة عين وليحدث ما يحدث ، فالحب تضحية ، الحب عطاء ، عطاء لا ينتهي والا فما الفرق بينها وبين غيرها من الفتيات بالنسبة له ان لم تلتق به ، لا بد من ان تؤكد حبها له ليكون له منطلقا يندفع منه الى سماء احلامها ، وطرق الصوت أذنيها :

- بيب . . بيب . . بيب . .

وعاودها الاطمئنان الى عدم وجود احد فأشارت له بطرف يدها ان اقدم ، وسمعت صوت طحن عجلات السيارة لحبيبات التراب ، والتهب وجهها بالدماء الحارة ، وعاودتها خفقاتها السريعة المتوالية وعالجت خصلة شعرها المتمردة في عصبية ، واصطدمت عيناها بوجه شاب اسمر انيق متألق بعينين مرحتين :

- مبروك . . مبروك يا سالمة .

تسمرت في مكانها ، اجتازتها السيارة الصغيرة ، بهتت ،

اصيبت بخرس مفاجىء ، كساها العرق فجأة ، جاءها الصوت من جديد مستبشرا :

ـ كنت اعرف انك ستنجحين . . ولكني لم اتمالك نفسي . . ان نجاحك يا اختي نجاح لي وتعزيز لرأيي فيك ، ثم انني رأيت ان اسبقك الى استلام الشهادة حتى اتدبر امر نقل الخبر السيء اليك والى والدينا في حالة رسوبك ، ولكنك ها انت عند حسن الظن وهانذا اجد ما ادافع به عنك ، ستواصلين دراستك يا سالمة وتأكدي ان كل نجاح تحققينه سيدعم وجهة نظري . .

ورغم كلماته المبتهجة التي كانت تمليها فرحته الحقيقية بنجاحها ، ظلت على حالها دون ان تنبس بكلمة ودون ان تأتي حركة سوى جرها اقدامها في اعياء الى جواره في طريقهما الى البيت .

الاختيار

قرروا أنه كبر ، انه صار رجلا بكتفين أعرض من كتفي ابيه ، وقرروا انه من العـار ان يظـل على حالـه بلا عمـل ، وقرروا ان يتوقف عن الدراسة التي لم يفلح فيها ، وان يشق الطريق الذي شقه كل أولاد الحي ، فيبني حياتـه ، ويكمـل نصف دينه .

واحس بأنه كبر ، ورأى كتفيه اعـرض من كتفـي ابيه ، وتألم لبطالته وتقتير أبيه عليه فطلـق الدراسـة ثلاثـا ، وشرع يبحث عن عمل الى ان عثـر على وظيفـة كتـابية متواضعـة في احدى المؤسسات ، وتلذذ بوجود بضعة دنانير في جيبه ، وبدأ يحلم باكمال نصف دينه .

وجاءته أمه تسأله عن زوجة ينتقيها من بين بنات الحي ، وشرع يحلم بينما كان يقف في وسـط « المربوعـة » منتصبـا على

قدميه ، ويتصور الزوجة الجميلة التي تستحـي من ظلهـا اذا لاحقها في يوم مشمس ، لكنها لا تستحي من زوجها حتى انها تستطيع ان تقف في حضرته وتتحـدث اليه في فستـان عصري قصير ، الزوجة ذات العينين السوداوين ، اللتين يستطيع ان يسبح فيهما بعينيه دون كلل ، بينما هي تسبل جفونها في حياء إذا التقتـا بنظـرات غريب ، الزوجـة ذات الأصـل العـريق ، والأخلاق الرفيعة والقلب الكبير .

وتأوه دون ان ينطق بكلمة ، وأمه تقف عاجزة عن قراءة افكاره ، مرتبكة في انتظار كلمة واحدة منه ، وابوه يتكىء على مخدة فوق حصيرة في وسط الحوش منتظرا ذات الكلمة . . .

ـ أختار زوجة ؟! . . . الخـير فيما اختـاره اللـه ووافقتـم عليه .

وابتسمت امه وعادت تلح عليه ان يعين فتاة بالـذات ، فتاة ربما تكون اعجبته ، وربما يكون قد رغب ان تكون زوجته لكن الحياء يمنعـه من الافصـاح عنهـا ، الا انـه ظل على صمتـه لا ينطق ، وامه تقف عاجزة عن فهمه ، وابوه في وسط الحـوش ينتظر .

وخالها تقف مبتسمة في حياء وبادلها الابتسامة بابتسامة أعرض ، وبادلته امه الابتسامة بابتسامة أم حنون ، وسمعته ينطق اسمها فماتت ابتسامتها على شفتيها ورحلت الفتاة من خياله ، ودق قلبه بعنف واحس بأن كارثة ما ستقع .

قالت أمه :

ـ أنت تعرف انها من اسرة غنية ، تعرف ايضا انها حصلت على الشهادة التوجيهية هذا العام ، وهذا يعني يا ولدي ان مهرها لن يقل عن الف دينار ، اضف اليه التوابع فيرتفع المبلغ الى الفي دينار . . . اذا وافق اهلها . . .

وازدرد ريقه ، وتألم لواقعه ، لكنه رأى ان يجير امه من معاناة الالم فابتسم :

ـ كلهن نساء . . . لا فرق بين هذه وتلك . . . هذه التي اخترتها انما اخترتها لكي امزح معك . . . الم اقل لك ان الخير فيما اختاره الله ووافقتم عليه انتم ؟! . . .

لكن الام صممت على ان تكون لولدها فرصة الاختيار ، وحتى لا يشطح بعيدا ، قررت ان تتحدث اليه بافاضة ، وشرعت تتحدث في الحال :

- بنت سيدك محمود ، « سمحة » ، والله لو رأيتها لاعتقدت انها نصرانية ، عيون خضراء ، شعر اشقر طويل ، طول وعرض شباب ، لم تر الشارع منذ عشر سنوات ، أي منذ كانت في السابعة ، حقيقة ان اباها يعمل مباشراً ، وان اسرتها فقيرة ، وانها امية مثلي ، لكن قل لي ، ألم اصنع منك رجلا كالجمل ما شاء الله ؟ . . هذه يا ولدي لن يتجاوز مهرها المائة دينار . . واعتقد انها تناسبك . . . .

- بنت الحاج علي . . . ليست امية يا ولدي ، انتظمت في الدراسة حتى الثالثة الابتدائية ،بنت سمحة ومؤدبة تستحي من ظلها ، تلبس الملابس الافرنجية وكأنها واحدة منهن ، لا بأس بها يا ولدي ، بنت ناس ، وسيدك الحاج علي رجل طيب ، هذه . . . مهرها لن يتجاوز المائة والخمسين دينار . . . هي ايضا يمكن ان تكون من نصيبك . . . الم ترها ؟

ورأى ان يساهم في الحديث ، قال :

- . . . وزهرة . . .

وكأنما لدغ الاسم العجوز فأجابت على الفور :

ـ معاذ الله يا ولدي . . معاذ الله . . . زهرة قليلة حياء . . . طول اليوم وحقيبتها في يدها تختال بفستانها القصير في سوق الظلام وشارع عمر المختار ، تزاحم الرجال كالرجال دون ان تستحي ، لا والله يا ولدي . . . ثم . . . الم تسمع ما يروى عنها من حكايات ؟! . . .

وابتسم . . وصمتت العجوز قليلا ثم اضافت :

ـ والله زهرة هذه . . . لو ربطت في يدي لقطعت يدي ، ثم ان اهلها رغم فقرهم ينظرون الى فوق ، صدقني يا ولدي ، انه رغم كل ما يقال عن زهرة ، فاهلها يعتقدون انها ستفوز بمهر فتاة جامعية شريفة رغم ان هذه « الصائعة » سقطت في الشهادة الابتدائية مرتين . . .

وجاء صوت ابيه من وسط الحوش ملحاحاً يدعو امه :

ـ اسمعي . . . تعالي . . .

واجابته العجوز على الفور :

ـ الصبر . . . اصبر . . .

وعادت تستحضر بقية العروض ، واسعفها عرض مغر

ربما فضلته على بقية العروض :

- بنت سيدك سليمان . . . زينب . . . لا شك انك تراها بين الحين والآخر . . . ما رأيك فيها ؟! . . . الا ترى انها جميلة ومؤدبة وبنت ناس ، يا سلام يا ولدي ، جاءهم كثير من الخطاب فرفضوهم لأن ابا البنت يبحث عن رجل ولا يبحث عن ثروة ، والله يا ولدي لو قصدناهم لما قصروا . . . كل رجل عاقل لا شك انه يتمناك لابنته .

وقاطعها :

- وبكم هذه ؟

ولم تفهم :

- نعم ؟؟

أوضح :

- مهرها . . . كم مهرها ؟

وحدقت العجوز في سقف الغرفة ثم عادت بعينيها الى ابنها :

ـ زينب حصلت على الشهادة الابتدائية . . . مهرها . . . قل يا ولدي ، مائتا دينار ، ربما اكثر لكننا لن ندفع اكثر من هذا المبلغ لأننا لا نستطيع . . .

وعاد ابوه ينادي امه ، استأذنت العجوز على ان تعود ، وبقي في « المربوعة » وحيدا ، وحل في عينيه كثير من البنات ، وارتاحت عيناه لواحدة منهنّ فأبقاها في عينيه الى ان عادت امه ، همس :

ـ نورية . . . نورية بنت سيدي عثمان . . ما رأيك فيها ؟

وتأوهت امه ، وصمتت قليلا ، وعاد يسألها فأجابته :

ـ هذه يا ولدي حصلت على الشهادة الاعدادية ، ابوها يطمح في ان تعمل مدرسة ، مهر هذه لن يقل عن الخمسمائة دينار واضف دائما التوابع ، ونحن يا ولدي فقراء ، انت ادرى بحالنا واعلم من غيرك ، لكننا نبحث عن الفتاة التي تريحك ولو على حساب ميزانيتنا ونحن في حيرة معك ، ونحن . . .

وصمتت فجأة كأنما ندمت على كشف اوراقها ، واطبق

الصمت على « المربوعة » تماما ، ومضت دقائق قليلة في بطء ورأت الام ان تنتهي الى قرار :

ـ الم تقرر شيئا ؟

ولم يجبها بكلمة ، ظل يحدق في الارض بعينين مشرعتين ، واعادت الام سؤالها : لكنه لم يجب ، وشاءت ان تقذف اليه بآخر العروض اغراء :

ـ بنت الجيران الجدد ، طول وعرض وعيون ، شباب ما شاء الله ، سمحة ومؤدبة وبنت ناس ، منقولة الى السنة الثانية الاعدادية لكنني سمعت ان اخاها منعها من اتمام دراستها . . . ما رأيك لو تقدمنا نطلبها لك ؟؟

ورفع رأسه في غضب :

ـ وبكم هذه ؟؟

واجابته امه :

ـ تعني المهر . . . سأقنع اباك بأن يدفع لهم مائتين وخمسين ديناراً على ان يخففوا علينا بقية الشروط ، انت تعرف تكاليف

التوابع . . . آه يا ولدي . . . ان . . .

وقاطعها في غضب :

ـ اسمعيني. . . لن اشتري ولا واحدة منهن . . . سأظل اعزب الى ان اتمكن من شراء البضاعة التي تروقني ، اما الآن فلن اشتري . . . لا . . .

وتركته امه الى ابيه تشكوه ، ولم يفلحا في تقرير شيء .

الخفقة البكر

انتهت السهرة وتفرق رفاق الليل وتحرك احمد يجر جسده النحيل في خطوات بطيئة الى زنزانته الباردة وكلمات أصدقائه تدق رأسه محدثة أصداء بالغة القسوة .

انهـم يعيشـون الحياة بكل بهجتهـا ، بكل آمالهـا بكل شبابها ، بكل ما فيها من سعـادة ومسرات ، فحياتهـم فرحـة متصلة ، وتطلعات بريئة جميلة ، فالواحد منهـم استطـاع ان يكتشف بئر حنان لا ينضب في صحراء الحياة القاحلة وصـار يرتوي من فيضه كل لحظة لتتدفق قطـرات الحياة في دمـه مع عروقه وتدفعه الى الامام ابدا .

ـ « رأيتها صباح اليوم . . . كانت تتمخطر بين رفيقاتهـا وكأنها ملكة . . . التقت عيناي بعينيها . . . رباه . . . انكم لا تعرفون ماذا يحدث عندما تلتقي الاعين . . . عيناها قالت انها

تحبني وتتمناني رفيقاً لحياتها واباً لأطفالها . . . ارتعشت يداها حتى كادت ان تسقط الحقيبة . . . تحركت بسرعة حتى لا احرجها . . . آه يا رفاقي . . . انتم لاتعرفون الخفقة الاولى . . . الخفقة البكر . . . »

كانت هذه هي كلمات سعيد ، وكانت كل حكاياتهم تدور حول نفس الشيء الذي لم يجربه احمد ، ذلك الدفق الرائع من فيض الحنان البكر البريء . . . نظرة . . . كلمة . . . تحية . . . اشارة . . . ابتسامة ، تلك الهبات الرائعة التي تخص بها فتاة رجلا بعينه دون سواه .

وادار احمد المفتاح في الباب فأحدث صوتا جعله السكون مسموعا ، وتخطى العتبة فجاءه صوت عجوز كان يتوقع ان يسمعه :

ـ لم تأخرت يا احمد ؟ ان عملية ايقاظك صباح كل يوم تتطلب جهدا كبيرا ، فلم لا تنام مبكرا كغيرك من عباد الله ؟ ان رفاقك رفاق سوء دون شك وسيقودونك الى مصيبة محققة ، وانت يا احمد . . .

وكان احمد يتمتم بكلمات غير مفهومة بين كل جملة واخرى

فيما كان يقفل الباب لانه حفظ عظات ابيه جميعها وصار في امكانه ان يلقيها بطريقة افضل مما يفعل ابوه ، ودلف الى زنزانته واضاء المصباح ومسح السقف والجدران وكل الموجودات بعينيه ثم اغمضهما . . لا جديد . . . كل الاشياء الكئيبة في امكنتها ، السرير بملاءته البيضاء ، المتسخة « والدولاب » بمرآته المشروخة والكرسي العجوز الاعرج ، والنور الاصفر الكالح ، ورائحة الهواء المخزون والغبار الذي يزيف الوان الاشياء ويشبع هواء الغرفة بذراته المتناهية الصغر مع كل حركة ، كل تلك الاشياء القبيحة التي لا تتغير ولا تتبدل ابدا ، تتحداه في خبث وتجعله يسأم كل شيء .

واستلقى على السرير وقذف بنعليه في لا مبالاة بعد ان برر عدم جدوى ارتدائه لمنامته بعدم اهلية ملابسه التي يرتديها لحق الحفاظ عليها ، فهي رخيصة لا تستأهل المكوى ولا تحتفظ بأثره لاكثر من سويعات قليلة ، ولذا فلا ضرر ينجم عن النوم بها .

واحس بأنه يخادع نفسه وانه يتذرع بأسباب واهية ليبرر كسله فابتسم ، ولمعت فجأة صورة سعيد يبتسم مبتهجا . . . آه يا رفاقي . . . انتم لا تعرفون روعة الخفقة

الاولى . . . الخفقــة البــكر ، وتلاشـــت الابتسامــة وزحف التجهم على وجه احمد من جديد حتى كساه ، واحس بأنـه يختنق ، خمس وعشرون سنة قاحلة ، خمس وعشرون سنة لم يسمـع خلالهـا كلمـة حنـان واحـدة ، ولـم تعتـر ذاتـه تلك الارتعاشات الودودة الشابة ، لم يخفق قلبه بحب ، ولم يحس في اي يوم من ايام حياته بقلب يخفق لاجلـه . . . والرفـاق يا للاغبياء . . . يظنون به الظنون ويسمونه « الصندوق المقفل » بل ويمتنعون احيانا عن الحديث في وجوده لاعتقادهم بانه يخفي عنهم مكنوناته وانه يتسلى بأحاديثهم .

وظلت الكلمات تدق رأسه :

ـ صندوق مقفل . . . صندوق مقفل . . .

ـ ايها الاصدقاء . . . حقا انني كذلك ولكننـي صنـدوق مقفــل على خواء . . . على لا شيء . . . صنــدوق يملــؤه الفراغ ، ولذا فانه مهما طرقتـه كلماتـكم فلن تتـردد إلاّ نفس الاصداء ، ولن تتبدل اصداء طرقاتـكم الا اذا تبـدل محتـوى الصندوق .

واحتجت جفونه ، واعترضت مفاصـله جميعهـا على ما

اعتراه من ارهاق ، صور له اعياؤه انه لن يقوى على الحركة ابدا وانه سيظل طريح فراشه حتى يومه الاخير ، وصرف افكاره المزعجة بأن حرك ساقيه ومد يده الى مجلة كانت قد وقعت من فوق الكرسي اليتيم في غرفته وقربها من عينيه ، وظل يتطلع الى الصور دون ان يميزها ، وكاد ان يرمي بالمجلة الى سابق موقعها ولكن عينين سوداوين تبتسمان شدتاه فنهض وامسك بالمجلة بكلتا يديه ، وعاد يدقق النظر في الوجه الصغير الودود والشعر الاسود المتهدل على الكتفين ، والبزاءة والوداعة اللتين تكاد تطفح بهما معالم الوجه .

انها هي . . . خيرية . . . كيف لم اتنبه ؟! . . . انها تبدو اكبر مما هي عليه . . . او لعلني لم انتبه الى انها كذلك ، انها هي ، تلك التي تنتظر رفيقتها صبيحة كل يوم على عتبة دارها .

واعاد رأسه الى المخدة ، وبدأ يبذل جهدا ليتذكر : نعم . . . صبيحة كل يوم في نفس المكان . . . لم يحدث ان تخلفت عن لقائها يوما ، ولكني لم اكن اراها كذلك ، كانت تبدو اصغر بكثير ، ولكن من يدري . . . ربما اعتقدت

الصغيرة انني اتعمد لقاءها وانني اهاب الاقتراب منها والتحدث اليها ، ليتني اعرف حقيقة ما نسجه خيالها حولي من صور ، انها جديرة بأن تحب وبأن تكون محطتي التي تغذيني بأكسير الحياة ، ولا اظنها ستمتنع لانه لا يمكن لمثل هذه البراءة والوداعة ان ترفض انتشال انسان من درب الجنون .

ووخزته فكرة فقفز من فوق السرير الى وسط الغرفة وقد الغت الفرحة انهاكه وارهاقه ونشطت اصابعه في البحث عن اوراق بيضاء وقلم احمر ، واستعد ليكتب خطابه الاول ، وضاعت الكلمات ، واحس بان رأسه يحتوي على مجموعة هائلة من التروس الصدئة المضربة عن الحركة ،وكاد يبكي ،ولمعت فكرة ان يستعين بكلمات الاصدقاء في كتابة سطوره ، وكادت يده ان تتحرك على الورق ، ولكنه رفض الفكرة ، فلا زيف في الحب ، فاما ان تتحدث مشاعره وتسكب لذيذ الكلام وروائعه والا فليمتنع ويصبر .

ووضع القلم فوق الوريقات القليلة ، ودغدغ شيء متناهي الدقة داخله ، وعاد يحاور نفسه ، فما معنى ان يمتنع عن نقل كلمات الاصدقاء اليها باسمه ؟ انه لا يريد ان يخدعها ، يريد لعاطفته تجاهها ان تعبر لها عن حقيقته ، وعاد ذاك الشيء

يدغدغه، وشرع يشدّه اليها وبدأت علاقة ما تتفاعل بداخله .

« حبيبتي . .

واغفري لي مناداتى لك بهذا اللفظ لأنني لم أتبين حقيقة مشاعرك بعد ، ولكنى أرجو أن لا تحرمينى من بهجة ترديده في خلوتي ، لأنه الأمل الذي عشت له عمراً طويلاً .

انني لا اعرف كيف اتحدث الى الاناث لانني لم اعرف منهن سوى امي العجوز التي كثيراً ما صور لي وهمي انها رجل ، اما غير امي . . صدقيني . . فلا اعرف عن الاناث شيئا حتى انني كثيرا ما اعتقدت ان لهن لغة خاصة غير اللغة التي نتحدثها ، وانهن يختلفن في كل شيء عنا . . سامحيني . . لسذاجة تصوري ، ولكني فقط اردت ان تغفري لي اية هفوة قد تبدو مني في حديثي اليك .

انني انسان شقي عاش لسنوات طويلة في بحث مستميت عن كلمة حب ، وكنت التقي بك صبيحة كل يوم صدفة ولم اكن انتبه الى انك الانسانة التي عرفت اخيرا . . هل جرحتك كلماتي ؟ . . معذرة . . ولكنني ميال الى الصدق . . .

شدتني صورتك . . جعلتني اتألم لكل لحظة اغفلتك

خلالها فأنت وديعة بريئة ودودة ، ولا اظنك تبخلين علي بالمشاركة في رحلة الحياة لما تبقى لنا من ايام ، ولكنني استحلفك ان تتوخي الصدق والامانة في تقييم ما قد تحسين به نحوي حتى نبدأ رحلتنا السعيدة في قطار متين لا توقف انطلاقته عقبة على الاطلاق . . فهل انتظر منك ردا ؟ »

احمد

واحس انه افرغ ما يعتمل في جوفه من كلمات ، واعاد قراءة الخطاب ، واعترته نشوة الخفقة البكر وايقن انه بدأ يجد نفسه بالفعل ، وطوى الوريقة وعاد الى السرير يسترخي ، ولكنه انتبه الى انه سيقابل خيرية صبيحة اليوم التالي ، وان اللقاء بالمحب يلزم المرء ان يكون لائقاً ومقبولاً ان لم يكن أخاذاً رائعاً ، فخلع ملابسه وارتدى منامته ثم جلس على الحصير ليفرد قميصه وسرواله ويكويهما ، وليبحث عن خرقة يلمع بها حذاءه ، وجاءه صوت ابيه من الداخل :

ـ الا يكفي سهرك خارج البيت الى ساعة متأخرة يا احمد ؟ الا تنام وتريحنا في ليلنا على الاقل ؟

وتمتم احمد بكلمات اراد بها ان يقول انه سينام ، وانتهى من تجهيز ملابسه ، وقرر ان يشتري بدلة اخرى جديدة حالما

يقبض مرتبه ، وتحرك في اتجاه زر مثبت الى جانب الباب المغلق فضغطه بسبابته وسبح في ظلمة الغرفة الى سريره .

الحياة جميلة بالفعل وفي استطاعة الانسان ان يفعل الكثير من الأشياء المبهجة لو تفتح على ما يحيط به من روائع الموجودات وصنع علاقـة ودية تغـذي عواطفـه . . غدا سيلتقـي بالوجـه الصبوح ولكنه لن يكون كسابق اللقاءات العابـرة ، سيكون لقاءً رائعاً مشحوناً بشتى الانفعالات والاحاسيس الرقيقة . . خيرية تبدو من بعيد على عتبة بيتها متأبطة حقيبتها المدرسية في انتظار رفيقتها ، واحمد في بداية الشارع الطويل يلوح متأنقـا وقد اخفى الخطاب في جيب سرواله وبخطوات واثقة ثابتة يسير في اتجاه حلمه الوحيد ليحقق الحياة والامل ، ويجد نفسه على بعد خطوات قليلة منها فيلتفت الى الخلف للشـارع في حركة سريعة تتخلل خطواته البطيئة ويقف قبالتها ويبتسـم ويخـرج وريقة ويناولها لخيرية في حياء جريء :

ـ سأنتظرك غدا . . شكرا . . الى اللقاء .

ويستغرق في نوم عميق .

●

وينهض مفزوعا وقد كشفت اشعة الشمس التي عبـرت

زجاج النافذة الى الغرفة مدى تعاسة الانسان المعدم ، ويتطلع الى ساعة يده ويتأكد له قيامه في الوقت المناسب ، ويندفع خارج الغرفة فيغتسل ثم يعود فيرتدي ملابسه على عجل ليدلف الى السقيفة في اتجاه الباب .

- القهوة يا احمد . .

- لا يا امي . . مستعجل . . صباح الخير .

واختلط آخر حرفين من تحيته بصوت الباب يقفل ، وتوقف احمد للحظة امام الباب وكأنه نسي الى اين سيمضي ، وتحرك فيما امتدت يده تتحسس الرسالة في رفق ، وقابلته الوجوه العابسة التي تبدو وكأنها تمن على الدنيا بقيامها المبكر وسعيها الى العمل ، فأعطاها من ابتساماته وتحياته الكثير ولاح صديق من بعيد فاختفى احمد في زقاق الى ان مضى صديقه وتلاشى خوفه من افساد صديقه لخطته ، ومشى في اتجاه الشارع الذي تقيم فيه خيرية ، وما لبث ان وصله ، ولاحت كما توقع على عتبة البيت محتضنة حقيبتها المدرسية فارتجف ، واحس بأن شيئا معلقا في داخله يقع ، وبسخونة تتخلل كل ذرة فيه ، وكاد ان يعدل عن رأيه ويعود ، ولكنه عاد فقرر ، ان يسير في خطى طبيعية تماما كما كان يفعل كل يوم ، وتحركت قدماه مرغمة فيما

انتبهت حواسه الى جميع ما يحدث حوله ، من اصوات وحركات ، وتضاعفت دقات قلبه وكاد يسمع نبضاته من خلال تدفق الدماء في عروقه ، ووجد نفسه على بعد خطوات منها ، ورأى أن يلتفت وينفذ خطته ولكنه خاف ان فعل ان تؤ ول من قبل عابر خبيث ، والحت عليه فكرة ان يسلمها الرسالة بعد ان تكبد ثمن المحاولة وحتى لا يكون احتراقه الذي شهدته لحظات توه احتراقا مجانيا غير مثمر ، وخاف مما سيلحق سلبيته من توابع الندم والعذاب والخيبة ، وامتدت يده الى جيبه واخرج الوريقة بأصابع ترتعش ورماها بين قدميها وكأنه يتخلص من كل عذاباته ، والتقت عيناه بعينيها فدفع بابتسامة مترددة الى صفحة وجهه ولكنها تلاشت قبل ان تبدو ، وخطا الى الامام وكأنه يعدو في اتجاه النجاة واحس مع كل خطوة يخطوها راحة تعيده الى ذاته . وانتهى الى آخر الشارع فاختفى واستند الى جدار وقد شل تفكيره تماما .

مضى من الوقت قليله واحمد في وقفته لا يتحرك ، ولكنه رأى ان يتأكد من وصول خطابه مهما دفع من اعصابه ، فخطا خطوتين الى اول الشارع ومسحه بعينيه وفرح لانه لم ير خيرية ، وسبقته قدماه في خطوات سريعة متفائلة ، ووجد

نفسه عند باب بيت خيرية فتوقف وبحث عن رسالته حيث رماها فلم يجدها ، واعترته فرحة غامرة ، واحس بجسده النحيل خفيفا مشحونا بمشاعر متباينة ، وارتخت عضلات وجهه التي ظلت مشدودة منذ لاحت خيرية . . انها الخفقة الاولى . . الخفقة البكر . . الحب الذي لم يعرفه طيلة سنواته القاحلة .

كان يمشي في خفة ،واحلام لقاء صبيحة الغد السعيد تدغدغ مشاعره . . ستتغير اصداء الصندوق المقفل ايها الرفاق . . ستأتي اصداؤه رنانة مبتهجة متفائلة . . سأحدثكم عن روعة الخفقة الاولى . الخفقة البكر . .

وسحقه صوت يقهقه قارئا :

- حبيبتي . .

واغفري لي مناداتي لك بهذا اللفظ .

ورنت ضحكات شابة في اذنيه ، وانتبه الى انه سيجتاز بعد خطوة واحدة طالبين يسيران في ذات الاتجاه وتسمرت عيناه على وريقته في يد احدهما يقرؤها للآخر ، وذهل ، وتجمدت اطرافه ، واهتزت الاشياء امام عينيه ، وما لبث ان تدارك الموقف ، ففر الى حيثما اتفق .

مريومة تغمز الحصان

عيناها مشبعتان بالحب ، عيناها مشبعتان بالدموع ، عيناها مشبعتان بالتفاؤل ، والمذياع يتحدث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل ، واصغر اطفال مريومة يشدها من قفطانها ، والذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجي على الارض فيكسره ، واصحاب دكاكين البقالة يصنعون كثيرا من القصص عن نسوة الحي ، والسماء لا تمطر ذهبا ، واصغر اطفال مريومة يبحث بيديه النهمتين عن قطعة خبز في القفة .

مريومة تفرد قامتها ، وتمسح بسبابتها ما تبقى من رشح الدمع في عينيها ، فرفيق العمر مات ، ابو الأولاد مات ، رجل البيت مات ، ومريومة تفرد قامتها وتطل على الدنيا بعينين من غير كحل ، بعينين مشبعتين بالتفاؤل .

ـ يا خالتي الحاجة . . عينيك على الأولاد . .

ودقت ارض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل ، وقهقهات المراهقين وفضول العيون ، لكن مريومة بنت ناس ، وابو الأولاد مات فكل الرجال ماتوا ، واصغر الأطفال يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفة .

وابتسم الرجل المنفوش ففضح انيابه الصفراء ، وحك رأسه ، وبدا في هيئة الرجل الخدوم الطيب ، وفكر مليا ثم ولد فأرا :

ـ يا مريومة . . انت بنت ناس . . لا يجب ان تعملي في وظيفة منظفة . . افتحي عينيك على الحياة وكوني شيئا آخر افضل . .

ومريومة بنت ناس ، وبنات الناس لا ترفع عينيها الى اعلى ، وتمتمت الأرملة كأنما تخاطب ذاتها مجيبة في استحياء :

ـ يا سيدي المسؤول . . لا استطيع ان اكون افضل من منظفة . . ابي لم يدخلني مدرسة وأمي لم تعلمني غير الكنس . .

قالت الانياب الصفراء متوددة :

ـ يا مريومة . . انت تملكين الكثير من المؤهلات . .

سألته :

ـ هل ستجد لي عملا ؟

ـ نعم

ـ متى . . عدني . .

ـ غدا .

ومضت مريومة تدق ارض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل ، ودق الشارع اصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين ، ولكن مريومة بنت ناس ، والصغار في البيت ينتظرون ، والطريق الى الصغار لا بد ان يكون مفروشا بالاصرار .

ـ باركك الله يا خالتي الحاجة .

ـ يا مريومة يا بنتي تزوجي ، فللأطفال رب يحميهم واعمام يهتمون بهم .

ذرفت مريومة ابتسامة :

ـ يا خالتي الحاجة . . ابو الأولاد مات . . فكل الرجال ماتوا . . اجل كل الرجال . . ودفعت كبير صغارهم الى البقالة المجاورة وفي يدي الصغير دراهم قليلة ، وفي عينيه شوق الى قطعة خبز وقرص جبن ، وصاحب البقالة المجاورة قاعد على صندوق خشبي ينفث دخان لفافته ويتحدث الى القعود في لغة العالم :

ـ ابو الأولاد مات . . وأم الأولاد فجرت . . رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب ، رأيتها في الشارع تمشي بين الخيول والعيون والمراهقين والرجال ، رأيتها تغمز باحدى عينيها المكحولتين لحصان . . والمرأة امرأة يا رجال . . انتم تعرفون ان المرأة تحتاج رجلا ونقودا ، فان لم تجد ما تحتاجه في البيت مرقت الى الشارع تبحث عنه ، ثم انني رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب تغمز باحدى عينيها المكحولتين لحصان .

وامتدت يد اكبر الصغار بدراهمه القليلة وحدق صاحب البقالة المجاوزة في الدراهم ، وهز رأسه مستنكرا ، ثم انفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه اللتان سيأكلهما الدود والتراب ،

وهمس لأكبر الصغار بصوت عال :

ـ فلتعطنا امك مما اعطاها اللـه ، ولتضف الى دراهمـك القليلة دراهم اخرى لأبيعك حاجتك من الخبز والجبن ، فان لم تكن لديكم نقود فلتغمز امك حصانا آخر .

ومضى اكبر الصغار الى مريومة التي كانت تنتظر فجر اليوم التالي في ظهر اليوم الأول ، وجذب الصبر الفجر ، ودقت مريومة ارض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل ، ودق الشارع اصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون ، ومريومة بنت ناس ، والله في الوجود ، ونصف المجتمع لا يجب ان يبقى مشلولا ، وابو الأولاد مات ، أجل . . ابو الأولاد مات . .

ـ السماء لا تمطر ذهبا .

ـ نعم .

ـ ولا بد ان يفكر الانسان بعقل .

ـ نعم .

ـ وانت تفكرين بعقل . .

ـ نعم .

ـ تعالي في البيت عشية اليوم . . سأبحث معك طبيعة العمل الذي يمكن ان تؤديه .

ـ في البيت ؟

ـ ولم لا ؟

ودقت ارض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل ، ودق الشارع اصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون ، ومضت في طريقها المفروش بالاصرار ، فأصغر الأطفال لا شك يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفة الفارغة . .

ـ ثلاثة ارغفة وعلبة جبن .

ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته وحدق في عينيها غير المكحولتين ، وصار حصانا في التو ، فتقيأ ابتسامة ، وناولها الحصان الأرغفة والجبن ، ورفض ان يفقدها دراهمها القليلة ، فالله يحب المحسنين .

ـ فليباركك الرب يا خالتي الحاجة . .

ـ فاجرة انت . . فاغربي عن وجهي . .

ودقت اللعنة اصرارها طيلـة عام ، وابـو الاولاد مات ، ومريومة لا تجيد الرؤ ية بعينين من غير كحل ، واكبر صغارها يحدثها في طفولة :

ـ سيدي الحاج محمود اشترى دراجة لابنه صلاح ، جئت كي ألعب مع صلاح فطردني وشتمنـي ، قال اننـي شحـاذ ، وكان قميصي الممزق يشينني بين الصغار ، وكان اخـي سليم يمرح والذباب على العتبة بلا سروال ، فركله محمـود بحذائـه الجديد بينما كان يحمل صينية الارز المعتادة اليك ، لم استطع ان انتقم لاخي ، وكل الصغار يا اماه يحملون نقودا وينعتونني بالشحاذ ، فما معنى ان نعيش على الصدقات ؟ اعطني نقوداً وقميصاً وسروالاً جديدين ، واشتري لي دراجة والا فاحبسيني في البيت بعيدا عن كل الصغار .

ودقت اللعنة اصرارها عامـا ثانيا ، وابـو الاولاد مات ، ومريومة لا تجيد الـرؤ ية بعينـين من غـير كحل ، والمذياع يتحدث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل ،واصغر الاطفال

يشد مريومة من قفطانها، والذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجي على الارض فيكسره .

ودق باب البيت بعنف ، ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته في وجه مريومة ، وتقيأ ابتسامة ، وذرفت ابتسامة ، وصهل الحصان :

ـ عامان يا مريومة دمرني خلالهما الانتظار . . ادفعي ديونك والا فاني سأرفع الأمر الى القضاء . . ألا تفهمينني ؟ ادفعي .

ـ ولكنني لا املك نقودا . .

ـ لتكن مقايضة . . بضاعة ببضاعة . .

وفهمت مريومة ، ومات ابو الاولاد في العام الثاني ميتته الاخيرة ، وحدقت مريومة في الفراغ بعينين مكحولتين ، وغمزت الحصان ، اجل غمزت الحصان .

اعترافات جريئة

انني لا اذكر من طفولتي شيئا يمكن ان انطلق منه في رواية قصتي ، لكنني اذكر انني كنت فتاة مدللة اذ كنت بكر ابويّ ، كنت اول من قذف به الحظ من اخوتي الى هذه الحياة ، وكان مجيئي الى الدنيا بعد طول انتظار وصبر وعلاج ، لذا فلقد استقبلت استقبالا رائعا من قبل ابويّ ، بالغا في تدليلي وتوفير طلباتي حتى علماني كيف لا احترم احدا منهما ، وكيف لا احسب حساب احد ولا اهتم بغضب أحد .

عندما بلغت السادسة لحقني الاخرون ، اعني بقية السرب ، اخوتي ، جاءوا الى الدنيا الواحد تلو الاخر ، وبدأ ابواي اللذان اشتاقا طيلة سنوات معاناتهما للأطفال ينصرفان عني الى اخوتي ، وبدأت احس بالخسارة التي لحقتني ، بدأت احس انني اخسر حب ابوي بالتقسيط ، اخسره مع كل صرخة ميلاد ، مع كل دقيقة يفد فيها على الدنيا قادم صغير ، وبدأ

الفـراغ يلفنـي ، بدأت احس كأننـــي اعيش في هذه الـــدنيا وحيدة ، وسيطر علي الاحساس بالوحدة ، نعم ، كنت احس وكأنني منبوذة ، محرومة من دفـق الحنـان والحـب الـذي كان يغمرنـي ، احسســت بكل هذا رغـم اننـي لم اكن اتعــدى السادسة من عمري ، وبدأت ابادل ابوي نكرانـا بنـكران ، وعدم اكتراث بعـدم اكتـراث ، ووجدتنـي اكره ابـوي واكره اخوتـي الصغـار ، وأميل الى الانطـواء وحيدة في لعبـي ، في معيشتي داخل البيت وخارجه .

ومرت السنوات ونفسي تأبى ان تميل الى غير الوحدة والرغبة الشديدة في معاكسة أي أمر يصدر الي من ابي ، من امي ، من اخوتي الذكور الذين يصغرونني والـذين اراد لهـم غرورهـم الغبي ان يُتحكموا فيّ فقط لأنهم ذكور ولأنني انثى . كنتَ اعاندهم ، اكايدهم ، اتشاجر معهم حتى انني اضطررت في احدى المرات الى ضرب اخي الذي يصغرني مباشرة ، ضربته ضربا مبرحا حتى كدت اقضي عليه كعقاب له على رغبته الغبية في استعبادي ، في اذلالي ، رغم اني أكبره ، رغم اني الأولى في حياة الأسرة .

من باب العنـاد ليس الا واصلـت دراستـي ، التحقـت

بالمدرسة الاعدادية في بنغازي ، ورغم ان مواصلة دراستي جاءت نتاجا لعنادي الا انني وجدت في المدرسة ما ينفس عن كبتي ، ما يبدد وحدتي ويسليني ، ولذا وجدتني اتشبث بالدراسة مدفوعة بقوة اكبر من عنادي ، وتحصلت على الشهادة الاعدادية لأخرس الجميع ، لأثبت لهم انني اصنع شيئا مجديا بذهابي الى المدرسة فأسكت آخر حجج المعارضة التي كانت تواجهني من أسرتي .

عندما حصلت على الاعدادية كان عمري خمسة عشر عاما ولم اكن حتى ذلك الوقت اعرف شيئا ، كنت مغلقة تماما عن الأفكار الجنسية رغم همسات وغمزات امي المتواصلة ونصائحها لي بأن لا أقفز حتى لا افقد بكارتي ، ورغم حديث زميلاتي في الفصل عن الشبان والحب والحياة ، ولم اكن في حقيقة الأمر ارغب في معرفة شيء عن عالم الجنس الغريب ، ولكن فراغي دفعني الى القراءة خلف الجدران في البيت . وجدت في الكتاب صديقا عزيزا ، رفيقا لا يملني ولا أمله ، اقضي في رحابه كل وقتي ، لذا وجدتني اقرأ كثيرا ، بدأت بقصص الاطفال فقرأتها جميعها رغم عدم تناسبها مع سني ، نعم لم تكن تتناسب مع سني لأنني كنت أحسّ انني كبيرة وان

الأفكار التي تعرضها قصص الاطفال ساذجة وغبية . بعدها ، وفي السنة الأولى الثانوية ، بدأت اتجه اتجاها جديدا في قراءاتي ، بدأت اقرأ قصص الكبار ، قرأت لنجيب محفوظ ولتوفيق الحكيم وليوسف السباعي ولمحمود تيمور ثم لإحسان عبد القدوس .

عندما بدأت اقرأ لإحسان عبد القدوس كان عمري سبعة عشر عاما وكنت في السنة الثانية الثانوية وكنت احس بأنني كبرت بالفعل بدليل نظرات الرجال التي تخترقني فأتعثر وتحمر وجنتاي واحس بالدماء حارة في عروقي ، وكانت كل قصص احسان لا تدور الا على الحب والجنس ، وكان كل ابطال احسان يخرجون من غرفة مقفلة يتبادلون تحت سقفها الحب في بساطة ، وكنت احس انني بطلة كل قصة أقرأها ، كنت احس وكأنني اعيش في القاهرة حيث ابطال احسان الذين يبدع في تصويرهم .

وعرفت الجنس من خلال كتابات احسان عن الحب ، وادركت الجنس من خلال التطورات التي طرأت على كل جزء في جسدي ، وأحسست بالجنس من خلال الانفعالات الخفية

التي يضج بها جسدي ، فصرت لا اقرأ لغير احسان ولا في غير الجنس .

ودخلت السنة الثالثة الثانوية ، وبدأت احب ، نعم احب ، احب شخصا وهميا لا وجود له في الواقع ، شابا غير واضح الملامح ، ولكنه رقيق مؤدب ، يحدثني عن الحب في لغة الشعراء ، يشبع احاسيسي في غربتي بالحنان الذي حرمته ، اجد في اللجوء اليه خلال ليلي الطويل كل سعادتي ، اتنفس انفاسه وألقى في ابتسامته الودودة حياتي ، وسخرت من نفسي ، من خيالي الذي يعالج وحدتي باختلاق حبيب لا وجود له ، ولكني لم استطع ان اتخلص من حبيبي المجهول الذي ظل رغم كل عنادي يلاحقني حيثما حللت ومهما حاولت ان انصرف بفكري عنه .

وحصلت على الشهادة الثانوية ، وكان كل املي ان ادخل الجامعة ، ولكن مجلس العائلة اجتمع ذات ليلة وقرر انني كبرت ، وانخروجي الى الشارع حتى لو كان بقصد الدرس والتحصيل يشكل خطرا يجدر بالعائلة ان تتجنبه فكيف يمكن ان اقعد الى جانب الرجال في مدرجات الجامعة دون ان يحدث ما لا تحمد عقباه !

وحاولت ان اقنع المجلس بأنهم يحكمون علي بالاعدام ، وانه يجب ان انهي دراستي التي قطعت فيها شوطا كبيرا . وكنت في حقيقة الامر متحمسة لرغبتي في اكمال دراستي كي اوفق في الحصول على حبيبي الذي صنعه خيالي في دنيا الواقع ، وكي اوفق في الحصول على شهادة تكسبني صفة خاصة دون بنات شارعنا ، ولكنني رفضت ككل ، لم أسمع على الاطلاق، قوبلت كلماتي بأمر غير قابل للنقاش ، امر يقضي بحرماني من اكمال دراستي حتى لو استدعي الامر استعمال القوة ، ولجأت الى غرفتي ابكي ، انزف دموعي على مخدتي ، وكلمات اخي الذي يصغرني تأتيني ثائرة في غباء طفولي يكاد يدفع بي الى الجنون :

ـ لا يمكن . . لا يمكن أبداً ان اكون مضحكة بين الناس . . .

وأبي . . . وأمي . . . عمي . . . خالي . . . كلهم يطيبون خاطره ويعدونه بأنني لن أرى النور اكثر مما رأيته ، وكرهت الطفل الذي يريد ان يصنع من نفسه رجلا على حسابي ، كرهته اكثر مما كرهت الجميع ، وعربد في داخلي

عنادي ، عنادي القديم ، الذي لازمني طيلة سنوات عمري ، وقررت ان افرط فيما حاولوا ان يحفظوه بالقوة .

بدأت اقف خلف الباب واراقب ابن الجيران العبيط الذي ظل يغازلني منذ شهور ، بدأت امنحه الابتسامات واغذي مراهقته بالاشارات ، وبدأ الشاب يتسمر بالساعات الطويلة على عتبة الباب ،متودداً ، متقرباً ، ملوحاً بين الحين والاخر بقصاصة في يده ، وكنت اكرهه ، لم يكن حبيبي الذي حلمت به في خيالي ، كان مجرد انسان تافه يبحث عن امرأة ، عن شيء يشغل به فراغه ، عن قصة يرويها لاصدقائه . ولكنني كنت اريد ان استعمله في حربي ضد اهلي ، وكانت رغبتي عمياء في ان افعل ، كانت رغبتي مجنونة لا يحكمها عقل ولا منطق ولا يسيرها سوى عنادي ، عنادي على تحطيم اهلي .

وخططت للجريمة ، وبدأت انفذها بمنتهى الثقة ، اشرت له فجاءني مهرولا ، وسلمته بيد مرتعشة قصاصة صغيرة ، وجاءت الساعة الثانية صباحا ، وتحركت من فوق فراشي الدافىء تسللت في خطوات بطيئة يقظة الى الباب افتحه لاعبر الامتار القليلة الى « مربوعته » ؛ وعلى سريره المتواضع اعطيته

نفسي ، اعطيته جسدي ، دون ان احس به ، وافترسني في بهيمية وانتهى مني في دقائق ، ونهضت دون ان اتبادل معه كلمة واحدة ،نهضت منهكة القوى ، خائرة ، متبلدة ، دون اي احساس بأي انتصار ، وجررت خطاي الى الشارع فالبيت احمل عاري على اكتافي .

ليلتها لم أنم . . كان الألم يمزقني ، ألم في جسدي ، ألم في روحي ، ألم من نوع جديد ، لم آلفه من قبل ، وكدت اوقظ امي لابلغها بما حدث ، ولكني استغنيت عن ابلاغها بالبكاء . بكاء مر لم ينته الا مع خيوط الفجر . . .

في الصباح اعتراني شعور عارم بالذنب ، شعور بالجريمة ، احساس بالمهانة ، احساس بانني لست سوى احدى بطلات احسان الساقطات ، وكدت اجن . قررت ان انتحر ولكنني كنت اجبن من ان افعل ، قررت ان اهرب ولكنني تصورت نفسي وضيعة على الارصفة مطاردة من الاهل والشرطة والذئاب . واحترت ، وافقدتني حيرتي شخصيتي القوية ، شخصيتي المتميزة ، شخصيتي العنيدة ، وتبدل احساسي تجاه اهلي ،لم اعد اكرههم ، لم اعد امقتهم ، بدأت

اتملقهم واحاول ان اكسبهم ، وكسبتهم بالفعل . كسبت امي ، وابلغتها بأنني فقدت بكارتي ، افهمتها انني قفزت من فوق الكرسي ففقدت بكارتي ، وجن جنون امي ثم جنون ابي ، ولكنهم اتصلوا بامام المحلة وابلغوه بما حدث لي ، وحررت شهادة طبية بالواقعة اعتمدها الامام الذي يشهد باننا من اشرف أسر بنغازي ، ووضعت الشهادة في المحكمة ، وعدت اكره اهلي اكثر مما فعلت طيلة حياتي ، وبدأت اتشفى بانكسارهم والذل الذي يلون تصرفاتهم ولكنني كنت اتعذب . كان سبب عذابي احساسي بتفاهة حياتي التي أعيشها .

وابلغت بأنني سأزف الى ابن عمي الذي يكبرني بعامين ، ولم اتأثر بالبلاغ الرسمي رغم كل المظاهر التي احاطتني في اعقابه ، كنت احس وكأنني مكلفة بغسل صحون او كي ملابس او اي شيء من هذا القبيل . . . و . . . نقلت الى حجرة صغيرة في بيت عمي . وقبلني ابن عمي كما انا ، قبلني بعاري البريئة منه بموجب وثيقة رسمية صنعتها الثقة ، وبدأت اعيش حياة جديدة مع انسان لا يعرف اكثر من رصف علب الطماطم على الارفف ، بدون شخصية تميزني ، بدون

احساس حقيقي بالحياة في كنف حبيبي الذي رسمته في خيالي ، ولم يكن ابن عمي يحس بشيء مما احس به ، كان بعيدا عني في عالمه بين امه وابيه واخوته يعيش حياتـه متنـدرا بمـا حدث في السوق من مواقف غبية لا تضحكني ، وعدت الى احسان من جديد ، عدت الى وحدتي الوك عذاباتي واحزاني ، اعطي ابن عمي ما يريده في ليله دون ان آخذ منه لاغلق على نفسي بابي ، امضغ احزاني والوك تعاستي واخـاف من نفسي على نفسي ، اخاف ان اتعثر فأقـع ، اقـع ذات الوقعـة التـي وقعتهـا قبـل زواجي . واحتار ، وأستغفر الله ، وأستغفر نفسي وأستغفر أهلي وأذوب في الاحزان .

عيسى يوسف اللموشي

شحنات الكراهية

انا طفل ، وعمري عشر سنوات ، واكره امي كثيراً ، واتعذب في كرهها لانني لا اريد ان اكرهها ، اريد ان احبها كما يحب الصغار امهاتهم ، لكن نفسي لا تفيض بغير كراهيتها ، اكرهها كما لم يكره طفل امه من قبل ، وانتم لا تهمكم احزاني ، فانتم لا تنفعلون بأحزان احد حتى لو كان طفلا مثلي لأنكم لستم سوى تركة حربين بلّدت الاحداث الهائلة احاسيسها وافقدتها مشاعرها وجعلتها لا تختلف في شيء عن الجماد ، ولكن معذرة ايها الكبار لأنني سأتحدث لنفسي تماما كما يحدث معي كل ليلة ، وسأبكي وابكي واشحن ذاتي بكراهية امي وكل الكبار .

انني طفل حقود ، طفل يغلي داخله بكراهية هائلة مدمرة ، رغم انني لم اكن كذلك منذ عام ، فمنذ عام كنت طفلا آخر ، كنت طفلا مدللا ، كنت وحيد ابوي واميرهما

الصغير الذي لا يرفض له طلب ولا ترد له كلمة ، كنت طفلا سعيدا كغيري من اطفال العالم السعداء بل وأوفرهم سعادة ، وكنت اعيش وابي وامي في بيت صغير ولا ينبض قلبي بغير الحب ، حب امي وابي وحب بيتنا الصغير الواقع في آخر الزقاق ، وحب كل قطعة اثاث في بيتنا ، وحب اطفال شارعنا وعجائزه وشيوخه ، وكل هؤلاء كانوا يحبونني حبا كبيرا ، حتى اواني المطبخ كانت تحبني ولقد وقفت على هذا الحب بنفسي . . . لعلكم تتساءلون كيف ؟!! سأحدثكم . .

اذكر ان امي كانت تضع قدرا نحاسيا ضخما فوق « الدولاب » في المطبخ وكنت اقف الى جانب « الدولاب » احادث امي التي كانت تقف في ركن المطبخ تعد الغداء ، وظللت واقفا لساعة ثم تحركت ، تخطت قدماي عتبة المطبخ ووقع القدر على الارض ، أي حيث كنت اقف ، وابتسمت للقدر الذي عرفته لتسع سنوات في بيتنا الحبيب ، وشكرته من قلبي على تفاديه الوقوع على رأسي الصغير .

كنت لا احتمل الابتعاد عن ابي ولو للحظة ، فكنت اقضي العشية معه في ملاعب الكرة او دور الخيالة او سوق

المظلام او احد المتنزهات او كبـرى المحـلات التجـارية حيث انتقي ما اريد من ملابس او لعب دون اعتراض ، ولا انام الا وراسي على ركبتيه ، وكان هو الآخر لا يحتمل الابتعاد عني ، وكان كلما عاد من العمل ظهرا يسأل عني فاجري اليه واعانق ركبتيه فيرفعني الى صدره ويشبعني تقبيلا وهدهدة ودغدغة ، وكنت اعرف ان ابي يدللني ، وكنت اجد في تدليله سعادتـي التي لا تضارعها سعادة ، وكان يصرعلى ان اتناول وجبتي معه حتى عندما يكون في بيتنا ضيوف اذ كان يصر على انني رجل وعلى انه يجب ان اقعد مع الرجال واتحدث اليهم بل واناقشهم في اقوالهم وآرائهم ، وكانوا يجدونني مسليا لانني اتحدث مثلهم في كل شيءوبصورةلا توحي الا بانني رجل مكتمل النمو رغم سنوات عمري القليلة . . . هكذا كنت اعيش حياتي وهكذا كنت احبها .

وحدث ذات يوم ان عدت من المدرسة ووضعت حقيبتي في « المربوعة » وخلعت جذائي وجوربي واحصيت ما في جيبي من نقود صغيرة ثم خرجت فاغتسلت وعدت الى « المربوعة » التي كنت اصر على الجلوس فيها كما يفعل شباب شارعنا الذين يكبرونني . واذكر انني قررت يومها ان ادعو ابي الى دار الخيالة

على حسابي لانني كنت املك قيمة تذكرتين ، وفرحت كثيرا ، ومنيت نفسي باللحظة التي يعود فيها ابي وادعوه الى مرافقتي وعلى حسابي ، وانتظرت يومها طويلا ولكن ابي لم يعد ، وتجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر وقرصني الجوع ويئست وجاءت امي :

ـ ابوك تأخر على غير عادته . . . اخرج وابحث عنه . . .

وكانت جزعة . . . نظراتها . . . كلماتها . . . ملامح وجهها . . . كل شيء فيها كان يرتجف ، وخفت لاول مرة في حياتي ، احسست بوقوع كارثة ما ، وضعت قدمي في حذائي وفتحت الباب واصطدمت عيناي بعيني سيدي سليمان ، الذي كان سيطرق الباب ، وغاص قلبي في قاع داخلي وسألني الرجل :

ـ اين امك ؟

وذهلت لسؤاله السمج ، واحترت ، كيف يجرؤ على السؤال عن امي ؟ وعقدت حاجبي وقلت من خلال انفاسي التي تلاحقت :

ـ مالك وامي ؟ . . . انني رجل البيت فماذا تريد ؟

ومسح براحته على رأسي ودفع الي بابتسامة فزعة وحولني عن الباب حتى كدت افقد اتزاني ومرق على الرغم مني الى السقيفة حيث كانت امي ، ودخلت من خلفه وكدت اطرده ولكن امي لم تخف وجهها عنه كما تفعل مع بقية الرجال بل دعته الى « المربوعة » غير ان الرجل لم يستجب وقال في كلمات مقتضبة :

ـ لقد وقع حادث لسعيد . . . صدمته سيارة في طريق عودته من العمل .

واصبت بخرس ، لم استطع ان انطق بكلمة واحدة ، تحركت عيناي فالتقت بعيني امي ، وجدتها متجمدة خرساء هي الاخرى ، افقدها الخبر قدرتها على فعل أي شيء ، واحتار الرجل امام سلبيتنافأضاف :

ـ جئت من المستشفى وسعيد في كامل وعيه . . . مجرد اصابة بسيطة .

وولولت امي واستدارت عائدة الى وسط الحوش وظل

الرجل واقفا في السقيفة يحدق في غباء وصرخت في وجهه غاضبا :

- ابي لا يمكن ان تصدمه سيارة . . . انني اعرف مدى حرصه . . . انك تكذب . . . انت كاذب .

والتفت الرجل الي وصوب عينيه المليئتين بالغضب والحنان وصرخ :

- اسكت . . . اسكت يا ولد !

ودخل خلف امي ، التي علا نحيبها وبكاؤ ها لسوء حظها ، ومزقتني كلماته الجارحة رغم ادعائه الحنان ، ودخلت من خلفه لاجره الى الشارع وقد تملكتني كل غيرة ابي على امي ، وقررت ان اطعنه بالسكين الحاد الذي تحتفظ به امي في المطبخ ان رفض الانصياع لامري ، واقتربت منه اشده من سرواله ، وطعنتني كلماته في سويدائي :

- البركة فيكم . . لقد توفي سعيد . . . . عوضكم الله فيه خيرا . . .

ولم اسمع بعدها سوى صرخة امي الاولى ، ولا اذكر سوى انني وقعت على الارض وغبت عن وعيي تماما .

نهضت بعد ساعتين ، وجدتني في غرفة مظلمة على سرير في بيت احد جيراننا الطيبين ، قفـزت مفزوعـا وهرولـت الى بيتنـا ، وتخللـت الهـرج والمرج والوقـوف والنسـاء المولـولات والدقات على الصناديق ، ودفعت باب « المربوعـة » فوجدتـه مقفلا ، دفعته بقوة فانفتح ، ودلفت الى وسـط « المربوعـة » فوجدت ابي مسجى ، ورفعت الغطاء الابيض عن وجهـه ، وانهلت اقبل شفتيه وعينيه المقفلتين ووجهه الاصفـر واغـرق كفنه في دموعي واصرخ مستغيثا :

- ابي لمن تركتني ؟؟ . . . لمن تركتني يا ابي ؟؟ . . . لم تموت وما الحكمة في موتك ؟؟ انني احبك . . . احبـك . . . فلمن تركتني ؟ . . . ابي . . . ابي . . . .

وابي لا يستجيب وقد تخلى عني تماما ، مات كل شيء فيه حتى حبه الكبير لي ، ابي لم يعد ابي ابدا . . . مات وانتهى .

وعملت اصابعي في جفونـه محـاولا ان افتـح عينيه ، ان التقي به ، فما كان يجب ان يرحل دون كلمة وداع واحـدة ، دون ان يضمني الى صدره ويمطرني تقبيلا وعناقـا ، وحبـا ، وسمعت وقع اقدام غاضبة ، وقبضت يد حجرية على عنقي ،

وجرني سيدي سليمان الى الشارع فيما اهتم بقية الرجال باعادة ابي الى سابق وضعه ، وانتزعت نفسي من ايدي الرجل الكريه ، واصلحت من هيئتي ، وجلست على احد الكراسي المصفوفة الى الجدار ، وجاءني الرجال يعزونني ، واغرورقت عيناي بالدموع ولكن ابي كان يهمس لي في حب :

ـ كن رجلا امام الرجال . . . كن رجلا والا غضبت منك . . .

وانتهت ليالي العزاء الثلاثة ، ومضى اسبوع وخلا البيت من جميع الذين شاركوننا احزاننا ، خلا من الجيران والأقارب والاصدقاء ، وبقيت في البيت أنا وأمي ، وعذبتنا الليالى الموحشة في غياب أبي وافتقدنا ضحكاته وكلماته وحكاياته وحنوه وحدبه على اسعادنا . ولكنني كنت التقي به في كل ليلة ، في نومي وفي يقظتي ، وكان يداعبني ويلاعبني ولكنه كان يوصيني دائماً أن أكون رجلاً وأرعى أمي واحفظ اسمه وإلا الحق به سوى الرحمة ، وكنت اعده من خلال دموعي بأنني في مستوى المسؤولية وأن عليه ان يطمئن في رقدته النهائية إلى أنه ترك من بعده رجلاً يرعى بيته تماماً كما لو كان موجوداً .

وعشنا في بيتنا الصغير الذي تولت الدولة دفع ايجاره ودبرنا

حياتنا بالمرتب الذي صرت اتقاضاه من المصلحة التي اعطاها ابي كل ايامه . واعتدنا حياة الوحدة ، واحببت امي اكثر مما كنت افعل ، اعطيتها كل ما في قلبي من حب وعوضتها عن حب ابي لها بحب اكبر واجتهدت في سبيل توفير جميع ما تحتاجه حتى انها كثيرا ما كانت تتحدث الى زائراتها عن قدرتي وحرصي على اسعادها ، ولم يكن ينغص ايامي سوى زيارات سيدي سليمان لنا وادعائه قضاء مصالحنا باعتباري صغيرا ، وكنت ارفضه ، ارفضه بكل غيرة ابي ، بكل رغبته في ان يظل بيتنا شريفا متمسكا بتقاليده الليبية العريقة ، وكنت ألوم امي في أحيان كثيرة ولكنها كانت تبرر تردده بأن هناك من الاعمال ما لا استطيع القيام به ، وبأنه حتى اقاربنا تخلوا عنا وتركونا بعد وفاة أبي ، ولم اقتنع طبعاً بالمبررات التي كانت تمضغها امي ، ولكني كنت حريصا على حسن علاقتي بها وعلى الا اجرحها بكلمة .

ومضت ستة اشهر ، والقيت في جوفي اول بذرة كراهية حقيقية ، واعلنت لامي عن سخطي ، ورجوتها ان تقلع عن الزينة والخروج الى الاعراس والافراح احتراما لابي الذي كان يحبها كثيرا ويغار عليها من الطائر الذكر ، ونبهتها الى انه لو كان

ابي حيا لما سمح لها بهذا السلوك ، ولكنها كانت لا تعير صرخاتي وملاحظاتي أي اهتمام .

ذات يوم وجدتها مرتدية اغلى ما لديها من ثياب وكل ما لديها من ذهب وقد اجادت تلوين وجهها بالمساحيق والاصباغ فبدت جميلة كما لم تبد في اي يوم من ايام حياتها ، وعرفت انها مدعوة الى فرح ووخزتها بملاحظة قاسية :

- الى بيت العريس رغما عنك

كنت اشير الى مبالغتها في الزينة واللباس ، وجاءتني كلماتها فكانت اجابة شافية لكل ظنوني وهواجسي :

- تأخذ السوء . . . بم تختلف عني اجمل عروس في العالم ؟ انني عروس انا الاخرى . . .

ودفعت بابتسامة باهتة وكأنها تحبس نبضي ، وحالت الدموع بيني وبين وجه أمي الذي خلته ملطخا بدماء أبي ، وضربت اول بذرة كراهية حقيقية جذورها في اعماقي ، وانسحبت الى « المربوعة » اجر احزاني وارتميت على السرير وانتحبت كثيرا وتمنيت ان يعود ابي الى مملكته ويعفيني من هذه

الهموم ، وجاءني ابي بوجهه السمح الحبيب واخفيت رأسي في صدره وبكيت كثيرا حتى خلت نفسي انتهي دموعا ، وظل ابي يشدني الى صدرهويبكي هو الآخر ، وايقظتني امي وهددتني بارسالي الى اعمامي ان لم اكف عن سخافاتي ، واخفيت رأسي تحت الوسادة وتركتها تذهب الى الفرح . .

. . . ومضت ايام كئيبة اعيشها وحدي في « المربوعة » ، اجتر ذكرياتي السعيدة الآفلة واحلم بلقاء ابي والارتماء في احضانه ، واحقد على امي وأرفض حديثها او الالتقاء بها ، وتكررت زيارات سيدي سليمان حتى صارت يومية لامناص من توقعها وقبولها رغم انني طردته اكثر من مرة .

وجاء اليوم الذي كنت ارهب لقاءه ، وابلغني خالي ان المرأة بلا رجل موضع شبهات واقاويل ، وانه لا يرتضي ان يداس اسمه تحت الاقدام ، وان سيدي سليمان سيرعاني وامي خير رعاية ، وسيحل محل ابي ، وانه يجب ان اقف الى جانب امي وابارك زواجها .

ورغم انه كان يتحدث الي ، ورغم انني ادركت كل كلمة من كلماته الا انني كنت احس وكأنه يتحدث الى غيري ،

كلماته كانت تعبـــر وكأنها لا تهمنـي ، محاولتـه الغبية كانـت بعيدة عن عقلي ، ووقف يستشيرني فرفعت اليه عينين دامعتين وابتسمت في الم :

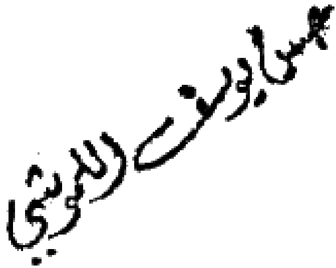
ـ افعلوا ما تشاءون . . . افعلـوا ما تشـاءون . . . انتـم اصحاب الرأي . . .

وكنت اعرف انني لا استطيع ان افعل اكثر مما فعلـت ، وان رأيي لا قيمة له ، وانني لست سوى طفل صغير لا يعني شيئا بالنسبة لهم ، وانطويت على نفسي بكل احزاني واحقادي وكرهي . . . احترق واحترق . . . والتقي بأبـي في احلامـي ويقظتي ، اشكو اليه ، أصرخ ويظل على صمته لا يستجيب ، لا ينطق بكلمة . فقط كان ينظـر الي بعينـين دامعتـين معبأتـين بالشفقة علي والتجاوب مع احزاني وكراهية امي .

انني اغفو الآن ايها الكبار ، وسأستغرق في نوم عميق ، وستأتيني الضحكات من الغرفة المجاورة ، وسأتجرع عذابات الدنيا واحزان العالم وآلامهم ؛ وسأكره امي ، واكرهكم جميعا . . . ولكن . . . معذرة . . . اذ انني نسيت انني اتحدث الى نفسي .

الفهرس

	ص
الاهداء	٥
بعض من تصورنا	٧
رحلة الاحلام	١٧
الغصن والشجرة	٣١
أحزان اليوم الواحد	٤٥
الحاج مسعود	٦٣
لمسات الهوى	٧٧
اللحظات الحرجة	٩١
مسعود يعاكس مسعودة	١٠٥
ممنوع الخروج	١١٥
الاختيار	١٢٩
الخفقة البكر	١٤١
مريومة تغمز الحصان	١٥٥
اعترافات جريئة	١٦٥
شحنات الكراهية	١٧٧



الكتاب القادم

قراءات في الأدب

تأليف

صالح أبو أصبع

يصدر

أول نوفمبر ١٩٧٨ م.

الثمن

١٠٠ درهم ليبي

الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

هذه السلسلة تحقق اشتراكية الثقافة